منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

المعنى والغضب

مدخل إلى فلسفة سيوران

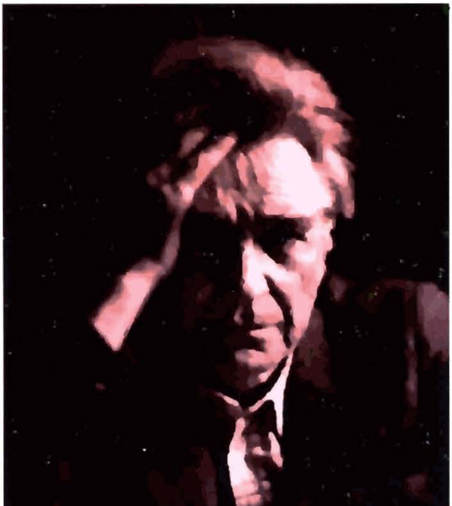

حميد زناز

المعنى والغضب

مدخل إلى
فلسفة سيوران

المعنى والغضب

مدخل إلى
فلسفة سيوران

حميد زناز

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 0-559-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

الإهداء 7

عندما علمت بمولدي فقدت كل شيء! 9

رقعوا ما لا يرقع! 15

ذلك الرجل المنفي في وعيه! 27

هل تتوافق الكتابة الأنيقة مع الفكر المتشائم؟........................... 39

أنا فيلسوف عَوَّاءٌ! 47

اضحكوا ولكن ابكوا في نفس الوقت... أيضا............................... 51

زنـــزانة الوجود.. 71

الإهداء

إلى كاميليا، رفيق، سارة، كريمة

عندما علمت بمولدي فقدت كل شيء!

"إن جميع ما يفعله البشر ليس إلا علاجا لغلطة وجودهم"

عبدالله القصيمي، أيها العقل من رآك؟

"مـــا كان أسعدني لو لم أجيء للدهر يوما و لم أرحل و لم أكن". يـــضعنا بـــيت عمرالخيام رأسا ضمن الجو العام الذي تدور فيه الفكرة المركزية المتمحورة حولها تأملات الفيلسوف الروماني الأصل والفرنسي الإقامة، إميل سيوران(1). ليس مأساة الإنسان في موته وإنما في ولادته، ذلـــك هو بيت القصيد. فإن كان راوول فانيغيم يعتقد أننا ولدنا لئلا نشيخ أبدا ولئلا نموت أبدا أيضا، يبدو سيوران متأكدا بأننا وجدنا لئلا نولد أصلا!

يكمن إشكال الوضع البشري حسب مؤلف "مساويء أن يكون الإنـــسان قد ولد"، في استحالة العودة إلى الطمأنينة الأولى والغطس ثم الـــذوبان من جديد في نعيم ذلك اللاوجود العذب الذي كنا نتمتع فيه قـــبل أن نولد، قبل ان نَتَفردن. لقد رُمي الإنسان في جسد وتُرك يتيما

(1) ولـــد إمـــيل ميـــشال سيوران في 18 أبريل سنة 1911في رازيناري إحدى القـــرى النائية بمنطقة ترانسلفانيا التي كانت آنذاك تحت الحكم الهنغاري - النمساوي وتوفي يوم 12 جوان 1995 بباريس، منفاه الإختياري.

أمـــام مـــصير مجهول، فما كان يمكن أن يكون إلاغريبا في هذا العالم الموحش. ينبع ضجر الإنسان وتَذمّره حيال الوجود من هذا الإحساس المطلق بالتيه، ومن ذات الإحساس نشأت الآلهة والديانات والفلسفات. مـــا الواقـــع سوى قمامة لدى سيوران، نسخة باهتة لممكن ما، أغنى وأسعد. لذلك نعثر على حنين يسري في كل ما كتب. حنين إلى مطلق مـــستحيل المنال، حنين إلى ما قبل النشأة: "حينما عرفت بأنني ولدت، انتهى كل شيء بالنسبة لي"، يتحسر بمرارة. وهذه "المعرفة" هي مصدر تمـــرده وشكواه الدائمين. الموت الحقيقي للإنسان هو ولادته. أليست الولادة سقوطا للروح في قبر الجسد؟

هذا الإحساس العميق الدائم بالسقوط في فخ التشخّص هو منبع كل العسر الميتافيزيقي الذي يعصف بالذات المفكرة. يخيّل لقاريء أدب ســيوران أنه عاش منفيا في الوجود، تحاصره أفكار اللاخلاص من كل جانـــب، فيـــبدو مـــن خلال كل ما دَوَّن كأنه كان مكبلا بما يشبه اللاقرار. فلا آمن بالبعث المسيحي ولا رغب في أن يفنى مع البوذية. لا أمـــل في بعـــث مع سيدنا عيسى ولا امحاء مع السيد اللطيف بوذا ولا تضحية بالعقل ولا خطوة ما نحو رهان الفيلسوف باسكال. على رغم استسلامه للأمر الواقع وزهده الظاهرين، فليس من السهل أن نراه يحذو حـــذو رســـول التشاؤم والتطيُّر شوبنهاور الذي كان يرى في وجودنا "صـــراعا مـــستمرا مع الحياة مع يقيننا التام بأننا نمنى بالهزيمة النكراء في نهاية المطاف"[1].

مقيّد بفكر عدم الخلاص، عاش إميل الآتي من بلاد دراكولا كل حـــياته في منفـــى جغـــرافي وفلـــسفي وفي رفض مستميت للمعطى،

(1) R. Jaccard, La tentation nihiliste, P. U. F., 1989, p. 53

للمحـــدود وللجزئي.. وهوما جعله دائم الندم على أمر لم يرتكبه، هو ورطـــة السقوط في وجوده: "لست من هذا العالم، كتب ذات يوم، أنا في وضع الغريب الدائم، في حالة لا انتماء كلي حيال أي شيء. ضياع الفردوس يستبد بـــي أيما استبداد."[1] إن الإنسان لفي وضع الغريب، في حالة نوستالجيا مزمنة إلى مطلق منيع، توق محموم إلى فردوس ضائع إلى الأبد، مرحبا أيتها الغربة! غربة ورفض للمحدود فتمزقات.. دفعته دفعـــا للبحث المتجدد دوما عن زمن آخر بغية الخروج والإنفلات من قـــيد الصيرورة الأرضية وسجن الزمن الحاضر الذي يخنقه. الصيرورة احتضار بلا خاتمة، كتب ذات مرة.

إن الـــشعور بالمنفى ووعي التغرُّب في الزمن الأرضي هو الذي يولّد ذلـــك الحنين إلى ماض أسطوري. ما البحث عن هناك آخر سوى عسر تلاؤم مع اللحظة - هنا. وما ذاك العسر إلا الحنين ذاته. لم يكفّ سيوران عن الإشارة إلى تلك السكينة الأبدية - في العدم - لأنه يعتقد أن في عمق الإنـــسان توق حميم للعودة إلى وضع ما قبل حالة الوعي وهو ما يفسر في نظـــري حسرته المستديمة على فقدان البراءة والمعنى والحرية. ندم لا نهائي علـــى ذاك الزمن الذي ترك السقوط منه فجوة سحيقة بين الأنا والعالم. ما أسعده زمنا لم يكن فيه الكائن البشري قد انحدر بعد إلى وعي ممزق...

هو فيلسوف المستحيل بامتياز. يعتبر من أكثر الفلاسفة تجذرا في الكـــتابة المأساوية. بقي طيلة حياته وفي كل ما كتب وقال مسمرا في عدم تلاؤم حاد مع المعطى، مع منطق الأشياء، بل في حالة عدم اكتفاء تـــام بالقـــائم. كان على طول الصفحات التي سوّد معلقا بين طرفين متقابلين: إما كل شيء أو لا شيء على الإطلاق! جنة أو جهنم؟

---

(1) Cioran, Cahiers 1957 - 1972, Gallimard, 1997, p. 19

هل يعود موقفه الفلسفي إلى شعور مبكر بالضجرغذّى تبرمه من الحـــياة إلى غير رجعة أم أن نظرته إلى العالم تعود إلى تلك الهوية الغنية تاريخـــيا والممزقة ثقافيا أم أن الأمرين معا جعلا منه مفكرا فريدا تعاطى مع الفلسفة بطريقة جديدة وشخصية للغاية، كثيرا ما تفتك ابتسامة من أشد الوجوه اكفهرارا؟

أمام فكر عصي على التلخيص أو النمذجة والتبسيط، أكتفي بالإنصات إلى هذه الروح الفلسفية المحكوم عليها بمقارعة المستحيل. لا أحاور سيوران كله وإنما سيوران الذي وصل إلى عنق الزجاجة، تلك الطبيعة التي ولدت والتي ما زالت تحلم بعدم الولادة. فلا أبتغي مـــن خـــلال صفحات هذا الكتيب تقديم نظرة أكاديمية عن فلسفة الرجل بقدرما أحاول جهد المستطاع تتبع الغليان الذي يعتريه، ذلك الـــصراع الداخلـــي، تلك الحرب الأهلية المشتعلة في دواخله، ذاك الحوار اللا نهائي مع الذات. إنها محاولة رصد لتلك الرحلة المضطربة نحو الذات والعالم بغية الإستمتاع بمحاورة متقطعة ومستمرة في آن بـــين الأجـــزاء المتشظية لشخصية من أقلق الشخصيات التي عرفها القرن الـــ 20 وأندرها.

ســـأحاول التـــساؤل عن سر ذلك الإحساس العدمي الراقد في أعماق الفيلسوف والوقوف على أسباب طلاقه وعدم تصالحه المستمر مع الواقع الماثل أمامه وما إذا كان ألمه الميتافيزيقي عائدا أصلا إلى عدم ذاك التصالح؟ لماذا ظل بحثه لا نهائيا عن مطلق ما، يعترف هو نفسه أنه لا يفقـــه من كنهه شيئا؟ في كتاباته يغدو الإنغماس في الذات صرخات مدويـــة لا مـــصطلحا فلسفيا باردا. يصف نفسه بالفيلسوف العَوّاء. "أفكـــاري، إن كـــان لي مـــا يمكن تسميته أفكارا، فهي تنبح، إنها لا

تفسر شيئا بل تنفجر"[1]. أفكاره وساوس، يقول، يجب أن يحافظ الفكر على مذاق من اللحم والدم.

من يقرأ سيوران سيكون مدعوا حتما ليعيش تأملا طويلا وهيجا حول مساويء ولادة الإنسان. سيعايش مقاضاة صارمة للوضع البشري عمـــوما ولمـــسيرة ابن آدم نحو هلاكه على وجه الخصوص. "كل ما فكـــرت فيه يعود في الأصل إلى توعكات شخصية حولتها إلى أحكام عامـــة". بقـــي الإستغراب حيال الوجود لب تجربته الحياتية الفلسفية. أليس كل تجربة ميتافيزيقية استفهاما لا يهدأ ولا يبرأ حول أصل الكائن ومصيره؟

(1) Cahiers, p. 14

رقعوا ما لا يرقع!

"إذا أمكـــن للإيمان أو السياسة أو الحيوانية النيل من اليأس، لاشيء ينال من الكآبة: لا يمكن أن تتوقف إلا مع آخر قطرة من دمنا"

سيوران

مع صاحب كتاب "موجز العَفن"[1]، نبتعد عن ذلك التفاؤل السعيد الذي كثيرا ما بشرت به المذاهب العقلانية ثم حاولت العلوم الوضعية بمعية بعض الإيديولوجيات أن تجسّده سعادة دنيوية. ككل فلاسفة العبث الذين هـــم أكثـــر قربا إلى القلب منهم إلى العقل، بقي مقتنعا أشد الإقتناع بعدم قـــدرة العقل على إضفاء معنى ما على الحياة. لئن قاسم هؤلاء الوجوديين نظرتهم القلقة أزاء الوجود فإنه لم يجاريهم بل انفصل عنهم انفصالا جذريا في مـــا يتعلق بمصدر ذلك القلق. فليس يقين الموت هو الذي يُنغّص عيش الإنـــسان ويجعـــل الحياة لا تطاق حسب مؤلف "على ذرى اليأس"، وإنما تكمـــن معضلة البشر الأساسية في كونهم يولدون. أن "لا نولد" هي أمثل صـــيغة وجـــود على الإطلاق، يقول، ولكنه يتحسر رادفا أنها ليست، مع الأسف الشديد، في متناول أحد. خطيئتنا الأصلية هي أننا لم نفعل كل ما

(1) Précis de décomposition

كـــان يجـــب أن نفعله من أجل ألا نأتي إلى هذا العالم، يقول في دعابة من دعاباته الجميلة. أن يولد المرء، هذا أمر لا يلبـــي أية حاجة على الإطلاق فلا ضرورة له البتة. إن الفيلسوف لعلى يقين أنه ولد هكذا صدفة في عالم لا يولـــيه أدنى اكتراث. يتمحور عمل سيوران الأدبـــي - الفلسفي حول هـــذا الإحـــساس بعدم جدوى الولادة، ومنه تتوالد وتتناسل جل أفكاره. ابـــتداءً من ذلك الشعور الحاد بخسارة اللاوجود وهي خسارة فادحة غير قابلـــة للتعويض بل رسوب نهائي في امتحان الكينونة، لا يمكن استدراكه، ومرورا بمعاناة الضجر ووعي العدم ووصولا إلى وسواس الإنتحار والذهاب إلى محاولة إعادة مصداقية فلسفية مفقودة للإنتحار، ذلك الحق الذي تقترفه النفس الملولة في حق ذاتها والذي شوهته الديانات التوحيدية حسبه.. تعاود هـــذه الأمور الظهور كهواجس رئيسية ثابتة من كتاب إلى آخر لتذكّر بني آدم وحـــواء أنهم في قاع جهنم وبأن حياتهم رديئة وأن مستقبلهم سيكون أردأ. فـــ "لا شيء يثبت أننا أكثر من لا شيء".

يعتـــبر ســـيوران قدرة الناس على الإستمرار في زيف الحياة بطولة عظمى. أن تستمر في العيش هو فعل احتجاج ضد الحقيقة، يقول. بكلمة واحـــدة: إن الحـــياة غير قابلة للتحمل. فلا جدوى إذن من انتظار غودو، فـــسيوران يعلـــم مسبقا ما سوف يخبرنا به ساموئيل بيكت، فيعلن ببرودة لامتناهية: "رؤيتي للمستقبل واضحة حدّ أنه لو كان لي أبناء لخنقتهم على الفور"[1]. لا الخلوة الدينية ولا الإنغماس في الملذات العابرة ولا التحركات الطمـــوحة والإنـــتهازية.. كفـــيلة بأن تضمن لنا أدنى سعادة ممكنة. ففي الوجود كارثتين يقول الكاتب الساخر برنارد شو: الأولى عندما لا نتمكن مـــن تحقيق رغباتنا والثانية عندما نحققها كلها. الحياة تراكم من التفاهات،

(1) l'inconvénient d'être né(I. E. N), Œuvres, Gallimard 1995, p. 1351

أشـــياء بسيطة رديئة مضحكة في نظر الكاتب الجزائري رشيد بوجدرة[1]. هذه الدنيا عاصفة من الخراء، تقول إحدى شخصيات كاتب البيرو الكبير فارغاس لوزا، لا ملاذ لنا فيها سوى تحت ظلال الفنون. فلنحتمِ يا إخوتي، تحت جناح بيكاسو ويوسف شاهين وأم كلثوم... لا خلاص إلا في تأمل الـــتحف واستنـــشاق الجمال. ألم يقل أحدهم أن الفن هو الشيء الوحيد الـــذي يجعل الحياة أكثر أهمية من الحياة ذاتها؟ فالحياة قصيرة والفن طويل، قال لنا سقراط منذ زمان.

الـــولادة انحـــدار إلى ما تحت الزمن، هي ثقل حمله سيوران كألم فلـــسفي مركزي طوال حياته، ألمٌ مكتوب حدد نظرته إلى الدنيا وما فـــيها. ولكن ألا يحسن بنا أن نتساءل عن الأسباب التي أدت بصاحبنا إلى أن يكـــون مفكـــرا مقلوبا؟ لماذا وعلى نقيض الفلاسفة والمفكرين الآخـــرين الـــذين ينحون دائما نحو المستقبل، يعود صاحب "التاريخ واليوتوبيا" إلى بداية المستقبل ذاته ويتخذ من ولادة الإنسان وتيهه على وجه البسيطة موضوعا لتأملاته؟ أليس من العبث أن يعود فيلسوف إلى أمر واقع لا يمكن أن نفعل حياله شيئا؟ ألا يكون الندم على الولادة من أغـــرب وأطرف بل ومن أعقم أشكال الندم في نهاية الأمر؟ ولكن ألا ينبغي أن نحتاط من هؤلاء المفكرين الذين يغرقون في الجدية، كما يقول لنا الفيلـــسوف السلوفيني سولوفوى زيزيك، أولائك الذين لا نكاد نعثرعلى أدنى غـــرابة أو طـــرافة في أعمالهم الأدبية؟ إن سيوران لا يخفي نفسه، فأحد عناوين كتبه السابقة الذكر يؤكد أن الولادة معضلة. "مساويء الولادة". هو مقتنع تمام الإقتناع أن آلام البشر آتية بل تبدأ مع ولادتهم. نقـــرأ في" أحلام" الفيلسوف أدورنو التي بدأ يسجلها ابتداءً من 1934 وإلى غاية 1969، صرخته في وجه أمه قائلا: "لعن الله الجسم الذي وهبني

---

(1) الجزائر نيوز2007/04/08.

الحياة"[1]. أتمنى أن تلغى المآتم. أريد أن نندب حظ البشر عند ولادتهم، لا في مماتهم، يقول مونتسكيو. وحتما يبارك سيوران تلك الصرخة وذاك الإقتراح. كينونة، قرف، سقوط، غم، كرب، قلق، كابوس، ذات، سهاد، انحطاط، تاريخ، عبث.. تلك هي باختصار مكونات العمود الفقري لتأملات العبد الضعيف سيوران. تتوالد تلك المشاغل الفلسفية الكبرى وتتكاثر انطلاقا من فكرته — الوسواس (الولادة) لتغدو مع مرور الزمن نوتات شخصية جدا نعثر عليها مبعثرة في كتبه التي تدور عادة حول الموت والحكمة واللغة والأدب وغيرها من القضايا الفكرية الكبرى.

تجدر الإشارة إلى أمر فريد قلما عثرنا عليه لدى غيره من الفلاسفة ألا وهو ذاك الإرتباط الوثيق والحميم بين فلسفة الرجل ومزاجه، فلا انفصال بين الإنسان والمفكر. تماهى مع كتاباته إلى حد أصبح فيه من الصعب الإمساك بالخيط الذي يربط بين مواقفه التي تبدو متنافرة أحيانا إذا لم تُربط بحياته الخاصة، بسيرته الذاتية. في حالة سيوران يشكل العمل الفكري والمفكر جسما واحدا. لم يكفّ عن اجترار نفس القضايا منذ كتابات الشباب بلغة أمه الرومانية ومرورا برسائله الغزيرة وحتى الوصول إلى نصوصه اللاحقة المكتوبة باللغة الفرنسية ومقابلاته الصحفية الكثيرة، ولكنه كان في كل مرة يخرج ما يكتب في نكهة متجددة دائما وفي قالب مغاير يتلاءم مع ابسيكولوجية اللحظة المعاشة وما تمليه عليه. وإن كان ليس صاحب فكرة واحدة، فإنني لا أتردد في القول مع رفيقة عمره سيمون بويه أنه لم يكتب سوى تنويعات حول نفس المسألة[2]. "لقد ولدتم جزافا"، تلك هي رسالته الأولى والأخيرة لبني نوعه.

---

(1) Adorno. T. Mes rêves, éd. Stock 2007

(2) Collectif, Lectures de Cioran, Harmattan, 1997, p. 20

مثل جميع المفكرين الكبار، تمحوّر فكره حول حدس واحد، فكرة مركزية واحدة، كرّرها، طوّرها أعاد صياغتها.. ماذا تقول للذي يكتشف أعمالك لأول مرة؟ هل تنصحه أن يبدأ بقراءة كتاب معيّن من كتبك؟ تسأله سيلفي جودو في كتاب خصصته للتعريف بفلسفته[1]. يختار ما يشاء، يجيب، ليبدأ من حيث شاء، فليس هناك تقدم في كتاباتي إذ يحتوي أول كتبي ضمنيا على كل ما قلته لاحقا. كالموسيقى تتغير وتيرة تأملاته ولكنها لا تتقدم. تلبس لباسا مخالفا فقط. يبقى الهاجس هو هو، فكأنه مخدر بالتحسرعلى سقوطه في جسده. كل شيء يدور حول هذه الهزيمة، ينطلق منها وإليها يعود. لقد قال في الولادة ما قاله مالك في الخمر. هجاها بما لم يُقرأ قبله قط.

كان استهجان الولادة حاضرا ضمنيا في كل ما كتب في بداية مشواره الأدبي، لكن سرعان ما يظهر بكل وضوح وقوة في أول كتبه المدونة باللغة الفرنسية والذي كان تحت عنوان مثير هو "موجز العفن" والصادر في باريس سنة 1949، ثم يصبح نقده للولادة هاجسا مركزيا في "مساويء أن يكون المرء قد ولد"، المنشور سنة1973، والذي قدمه إلى ناشره على أنه "سلة مهملات من المزح والصيحات المرعوبة". بعد "على ذرى اليأس"، "كتاب الأوهام"، "دموع وقديسون" ومرورا بـ "غسق الأفكار"، "القياسات المنطقية للمرارة"، وحتى "إغواء الوجود" و"السقوط في الزمن"، ها هو الإبن الضال، المناهض للفلسفة الجامعية الملساء يعطينا حكمه النهائي في الوجود الإنساني الذي لا يعدو أن يكون سوى ترقيع لما لا يمكن ترقيعه أبدا. إن الثقب أكبر مما يُرقع، يقول مثل أمازيغي. كأن سيوران يعود إلى نقطة الصفر، بعدما اختبر عجز الفلسفة وعدم جدواها

---

(1) Jaudeau. S, Entretiens, éd. José Corté, 1990, p. 34

في عقد مصالحة ما بينه وبين الوجود. عاد إلى التساؤل عن جدوى حضور بـــني آدم وحـــواء على وجه الأرض، وعلى الخصوص التساؤل عن معنى وجـــوده هـــو بالذات: "وعيت من زمان أن مكاني ليس هنا، وأنه ليس بإمكاني أن أتلاءم أبدا مع دنيا الأرض"[1].

لم يتوقف عن التباكي من كونه محكوم عليه 'بالإنوجاد' في هذا العالم الـــسفلي الـــسافل. كان يعتبر نفسه في حالة إقامة جبرية على الأرض. إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام. نقرأ في "المساويء" أن في "فعـــل الولادة غياب للضرورة فادح إلى درجة نبقى فاغري الأفواه حينما نفكـــر في الأمر مليًا. فلا نملك أزاء ذلك سوى اصطناع ابتسامة صفراء". وبمـــا أنني وصلتُ مع سيوران إلى هذا الحد من تسفيه الولادة، فلا أريد أن أحـــرم القاريء من الإستمتاع بتلك الضربة الكلامية القاضية التي يوجهها للحـــياة عمـــوما: "كـــنت في ما مضى أتساءل أمام الموتى عما جنوه من ولادتهـــم؟ نفس التساؤل ينتابني اليوم أمام كل الأحياء". "ما أسعد من لم يـــولدوا أبدا، يقول الرسام فان غوغ، يحملني مجرد تخيل نفسي في وضعهم إلى ســـعادة لا نظـــير لها، يا لها من حرية وما أرحبه من فضاء! كان من الأحسن لي أن أكون كما لو أنني لم أكن".

يـــا ليـــتني لم أكن أبدا، عدم الحياة أفضل بكثير من هذه الحياة، يشتكي أغلب الناس حينما تتعقد حياقم اليومية. إذا كان أيوب قد لعن اليوم الذي ولد فيه كما جاء في الأسطورة الشهيرة، لم يكتف سيوران بلعـــن ذلك اليوم النحس الذي سقط فيه إلى هذا العالم بل أغرق أيامه كلـــها في بحر من الشتم والسباب. تعتبر الولادة في نظر عدوها اللدود "كارثة"، "صدفة غير سارة". وهي "خضوع واستسلام" بل "نكبة". إنه

---

(1) I. E. N, Œuvres, p. 1280

سقوط حر في ورطة لا خروج منها أبدا. لا يبقى الأمر مجرد وجهة نظر فحسب عند صديقنا سيوران بل يترجم غضبه بعدم الإنجاب: "يمكن أن أقترف أي جرم ما عدا أن أكون أبا"[1]. فكل الأخطاء مغفورة إلا هذا! نتذكر موقف الفيلسوف أبي العلاء المعري الذي أضرب عن الزواج والإنجاب كيلا يساهم في ما يسميه بعضهم "المحافظة على استمرارية الجنس البشري". إن الأبوة جناية لدى العربي أبي العلاء والرغبة في التكاثر مرض لدى سيوران، حفيده البلقاني. محظوظون هؤلاء الـ 350 ألف مولود الذين يأتون إلى هذا العالم كل يوم. ما كان سيكون مصيرهم لو أن أولياءهم كانوا من أتباع هذا أو ذاك الفيلسوف؟ هل يُقدِّر الأطفال الذين لم أرتكب إنجابهم مدى السعادة التي يدينون لي بها؟ يتخيل سيوران، فكأنه الصدى لبيت أبي العلاء: "هذا ما جناه علي أبي وما جنيت على أحد". وهكذا لم يفخر الإثنان بعدم الجناية على أبنائهما المفترضين فحسب بل جعلا من التكاثر جريمة موصوفة. لا يرى سيوران في الإنجاب غير حركات بهلوانية تافهة تتلوها تأوهات حيوانية. الجنس حركات تافهة، بشرة فوق بشرة وانتهى الأمر، يقول رشيد بوجدرة[2]. منذ وصول أوجين يونسكو، عرف العالم أن الرومانيين حينما يشدون الرحال إلى باريس فليس البتة من أجل أن يقولوا للبشرية أشياء سارة. ها هي بعض أخبار على لسان المسرحي الكبير يونسكو تضعنا في جو قريب من جو ابن بلده وصديقه الحميم سيوران. "هناك أمران مرفوضان: أن نولد ثم نموت"، ويضيف أن الوضع الوجودي الإنساني غير مقبول بالمرة[3]. "لم

(1) المصدر السابق، ص. 1273.
(2) الجزائر نيوز 8 أبريل 2007.
(3) Ionesco, Un homme en question, Gallimard, p. p. 24 - 32

أتمكـــن مـــن التلاؤم بشكل كامل لا مع الوجود، ولامع الآخرين ولا سـيما مع نفسي"[1]. ربما تكرهوا حزنا حقيقيا، تقول حكمة فرنسية، ويكون أجدى وأنفع من فرحة كاذبة.

لا يعتبر مقت الإنجاب أو معاداة الحياة أمرجديدا. فذلك ليس من احتكار ثقافة معينة أو اختصاص عصر من العصور. فلا يكاد يخلو من ذلك تاريخ البشرية بكل أديانها وأعراقها وفلسفاتها وحضاراتها المختلفة المتـــباعدة. لم يحـــتف بنو آدم دوما عبر تاريخهم بالولادة والإنجاب. لا يمكـــن أن يخطر بأي حال من الأحوال، على ذهن عاقل أن هذا العداء للتكاثـــر فكرة سيورانية بحتة. ألا تعبر غريزة الموت عن نفسها، يكتب بيار شونو، عبر أسطورة سيلان الغريبة؟ أعظم سعادة بالنسبة للإنسان يقول سيلان، هو ألا يولد... وإن ولد فإن أعظم سعادة هي أن يموت في أسرع وقت ممكن"[2]. وهو ما يقوله لنا صوت آت من قلب القرن الحـــادي عشر، صوت الأديب الشامل عمر الخيام الذي كان يرى أن الـــسعيد هـــو من يلقى حتفه مبكرا والأسعد هو من لم يولد قط. في اللاولادة سعادة وفي الإقامة الأرضية عقاب للبشر لا غير. الأمثل لنا هو أن نتراجع عن الولادة، أن نعود إلى الوراء مثلما نلهو برؤية الأفلام عن طريق تسريع الشريط إلى الخلف. لا بل من الأحسن، كما تمنى سيوران يوما، أن نولد شيوخا ثم نصغر فنصغر حتى نتتهي أطفالا! هل يمكن أن يكـــون فيلسوفا حقيقيا من لم يمض كل حياته متأملا الموت؟ لا، يجيب شيشيرون، ما حياة الفلاسفة كلها سوى تخمين لما بعد الحياة وتمعن في المـــوت. أجهز نيتشه على كل أمل وقطع كل رجاء، نمضي كل حياتنا محـــاولين أن نـــسى أنـــنا سنموت، يقول. ويضيف على لسان نفس

(1) Notes et contre-notes, Gallimard, 1962, p. 135

(2) Chaunu, P., La mémoire et le sacré, Calman levy, 1978, p. 44

سيلان: أيها الجنس الطاريء، ابن الحظ والشقاء! لماذا تجبرني أن أقول لك أشياء لا تنال رضاك؟ اسمع إذن أيها الشقي: "أعذب الأشياء في الكون بعيدة عن متناولك: ألا تكون قد ولدت، ألا تكون شيئا. أن تموت في أقرب وقت ممكن ذاك ما هو أنفع لك وأجدى"[1].

حتى المغادرة السريعة نفسها غير مجدية فلا يجني العبد منها شيئا. يؤكد كتاب "المساويء" أن أزمة الإنسان تتعدى الموت عينه، لا فائدة منه أيضا لأننا سنفقد بموتنا مقدار ما فقدنا بمولدنا، كل شيء[2]. لذلك فلا ينتحر حسب سيوران إلا المتفائلون الذين لم يعودوا قادرين على الإستمرار في تفاؤلهم. أما الآخرون فلماذا يكون لهم مبرر الموت وهم لا يملكون مبرر الحياة! الشر، كل الشر، ليس أمامنا بل من ورائنا. هو ليس أن نفنى وإنما أن نكون. وهو الأمر الذي فات المسيح تماما، يقول سيوران، والذي أدركه بوذا تمام الإدراك. "نحن لانعيش أبدا حسب الفرنسي باسكال، نترجى العيش فقط". ضحكنا فكان الضحك منا سفاهة وحُق لسكان البرية أن يبكوا، صدق أبو العلاء المعري، لأن الأيام تكسرنا في كل لحظة ولا يعاد لنا أبدا سَبكُ. كثيرا ما نعثر على هذا العداء للتوالد والتكاثر لدى العديد من الحركات الدينية وبعض الملل والنحل كالبوغوميل والمانويين.. هؤلاء الذين وصفهم سيوران نفسه بأنهم أصحاب بُعد نظر، وبالأناس غير القابلين للتضليل. يمكن أن ندرج البوذيين ضمن عائلته الفكرية أيضا لا لشيء سوى لكون بوذا قد وضع هاوية الولادة كمصدر لكل الآلام وذلك قبل الشيخوخة والموت. لا يفوت قاريء كتبه والمطلع على ما جاء في مقابلاته مع الصحافة أن غذاءه الأدبي والروحي وكل صداقاته الفكرية تذهب في

(1) Nietzsche, Naissance de la tragédie, trad. G. Blanquis, Gallimard, p. 32.

(2) I. E. N. p. 1305

نفس الإتجاه، نحو تبخيس الحياة دائما. فالسيدة ديفون المُعجب بها والتي يكــن لها كبير الإحترام والتي كثيرا ما ذكرها في مؤلفاته، كتبت ذات قــرن قائلة إلى فولتير: "المحزن والمغضب هو أن نأتي إلى الحياة، ولكن يمكـــن أن نقـــول عن هذا الداء أن علاجه أكثر منه شرا". وعن طامة الولادة الكبرى يكتب الدانماركي كيركوغارد دون أدنى مواربة: "أنا، عـــندما يولد مولود، أدخل في حداد وأتذرع من الله ألا يصل إلى سن الرشــد". لم يفعل سيوران سوى تثمين وتبني بعض المواقف التحقيرية التي كانت موجودة سابقا لدى بعض التقاليد العريقة في مناهضة الحياة. تكمن إضافته النوعية في دفع الإستفزاز إلى حدوده القصوى. لقد انتقم مـــع مرور الكتب والتصريحات الصحفية والمراسلات الشخصية انتقاما أدبـــيا من الحياة. لقد جذّر المعارضة. ثار ضد أولائك الولودين المجانين وندّد بـــ "التناسل والتكاثر"ذاك التنظيم الغريب للنسل الذي تدعو إليه الديانات التوحيدية. وصف الحياة تارة بـــ "الأكال الذي يسري على وجه الأرض" وبــــــ "الوباء" في مرات أُخر. "أعتقد أن إقامة امبراطورية يكون أســـهل لي بكثير من تكوين أسرة"، يقول في شذرة من أجمل ما كتب من شذرات. إنه الشطط بعينه أن يولد الإنسان ويلد بدوره، أن يرث ويورث الـــزلل. مـــا الحياة إلا الهوس متجسدا، فلماذا المساهمة في هذا المسخ؟ لنقطع الطريق في وجه هذا الهذيان! كفى! "لا أولاد" No Kidding هكـــذا يطلـــق على جمعيتهم أمريكيون متحدون ضد الإنجاب. أما في بـــاريس التي أقام فيها سيوران فقد صدر في صيف 2007 كتابا طريفا عنونته مؤلفته "لا أولاد. أربعون حجة ضد الإنجاب"[1]. أربعون فقط! كان يمكن لسيوران أن يعلق ضاحكا. لقد تعودنا مع الوجوديين قبلئذ

(1) Corrine Maier, Quarante raisons de ne pas avoir d'enfants, éd. Michalon, 2007

على تلك النظرة المنددة بهذه الحياة الناقصة، غير المكتملة، والنظر إليها بعين الريبة وعدم ائتمان جانبها بل وتحويلها إلى نقطة استفهام كبرى. ولئن كانت رهن التحقيق دوما وفي قفص الإتهام في أحيان كثيرة لدى سارتر وكامو وإخوانهم في الفلسفة، فإنها تبقى قابلة للتحسن افتراضيا. تبقـــى على الأقل محافظة على حقها في الإستئناف والطعن. "إن الحياة الـــتي أحيا ليست حياتي"[1]، يكتب كيركوغارد، فكأنما يأمل في حياة أخرى، حياته الحقة.

علـــى نقيض مؤلف "مصنف اليأس" وأكثر الدانماركيين شهرة وعلى عكـــس جمهور الوجوديين الآخرين على اختلاف مشاربهم، يدفع سيوران هجـــومه علـــى الحياة إلى مداه الأقصى. يستعمل الأسلحة الثقيلة بل تلك المحرمة دوليا. يحكم على الحياة حكما سلبيا مؤبدا "الولادة والحبس صنوان تبصر النور فترى القيود"[2]. ماذا يقول لقارئه عن هذه الحياة الدنيا التي لا تـــستحق أن تعـــاش؟ "لقـــد هجوتها على الدوام وكل ما قلته فيها يبقى صـــحيحا. فلست مستعدا لحذف كلمة واحدة مما قلت"، يؤكد في كتابه "الخالق السيء"، كتابه الحادي عشر المنشور سنة 1969. وكان ذلك قبل صـــدور "المـــساويء" و"التمـــزقات" و"تمـــارين الإعجاب" وآخر كتبه "اعتـــرافات ولعـــنات" والتي كانت في مجملها كتب حرب حقيقية ضد الحـــياة، وإن كانت حربا طريفة، كان القصف فيها بعصا القهقهة وأناقة العـــبارة ولسعات الهزل والمزح الأسود إذ قبل أن تكون الحياة هنة كبرى فهي في نظره، قلة ذوق لا يصححها لا الموت ولا الشعر...

منذ "على ذرى اليأس"، كتابه الأول، الصادر في بوخارست سنة 1934 حيث لم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين خريفا إلى آخر كتاب

---

(1) Journal, 1839

(2) Le mauvais démiurge, Œuvres, p. 1249

نشره سنة 1987[1] وكان قد بلغ من الحزن عتيا، بقي غضبه الأدبي هو هو. خمسون سنة كاملة تفصل بين الكتاب الأول والأخير ولم يغير من مواقفه قيد أنملة. لم يفعل سوى العودة بطرق مغايرة إلى حبه القديم. زيارات تفقّد ليس إلا، كما يقول هو نفسه. وتبقى الحياة كما عهدها في شبابه "غير ممكنة وغير معقولة". ليس لها معنى ولن يكون لها معنى أبدا. فما العيش إلا "افتراء على النفس وعلى الغير". حكم على الحياة بالإعدام، "لم أقتل أحدا كان يقول، لقد فعلت أحسن من ذلك بكثير، لقد قضيت على الممكن". هل يمكن اعتبار منطوق حكمه هذا صدى لمقولة هيجيسياس، التي قيلت منذ ثلاثة وعشرين قرنا مضت: "لا تبدو الحياة معقولة إلا لمن لا عقل له". وهل هي الرد القاتل على استغاثة كيركوغارد: "اعطوني ممكنا وإلا اختنقت!"[2] لئن كانت كتابته ذات رائحة عطرة، يبدو سيوران لأول قراءة موزع يأس ومثبط عزائم بامتياز ولكن يبقى تشاؤمه وتطيُّره من أعذب ما يقرأ قاريء، بل يتحول ذلك النظر السوداوي إلى سعادة أدبية فعلية كي لا أبالغ وأقول أنه يدفع قارءه إلى تفاؤل ما. تعطي كلماته الجميلة ضد الحياة "المرة" معنى ما للحياة رغم أنف قساوة الألفاظ المستعملة.

---

(1) اعترافات ولعنات.

(2) Traité du désespoir, Gallimard, 1973, p. 142

ذلك الرجل المنفي في وعيه!

"الوعي بالزمن مؤامرة على الزمن"

سيوران

لقد سبق وأن رأينا في صفحات سابقة كيف استعار سيوران لغة العيادة والمرض ليصف الحياة "أُكالا"، و"وباءً حقيقياً" على وجه الأرض. ولكنه يجد في كل علة أو مرض عضوي شيئا من "الخصوبة" بل يجد في الباتولوجيا "مُوّلدا للأحاسيس والأفكار". فما شعر بودلير وفلسفة نيتشه وروايات كافكا سوى نتيجة مرضهم: "دخلت الفيزيولوجيا مع بودلير إلى مملكة الشعر ومع نيتشه اقتحمت عالم الفلسفة. معهما ارتفع اضطراب الأعضاء إلى مرتبة النشيد والتصور العقلي. حُرما من الصحة والعافية، يقول الدكتور سيوران مُشخصا، فتوجب عليهما ضمان مستقبل مهني للمرض"[1]. ينظر إلى دوستوفيسكي على أنه الشخص الذي حوّل حالاته المرضية إلى رُؤى. فـ "العمق من احتكار الذين تعذبوا"[2]. رب ضارة نافعة. لو نجح الأطباء في إبراء كافكا من قلقه وقرفه، وبروست من رَبوه وبودلير من داء الزهري... لكانوا قد حرموا الإنسانية من أدب أساسي! ولكن

(1) Cioran, Syllogismes de l'amertume, Œuvres, p. 749

(2) Cioran, Entretiens, Gallimard, 1995, p. 228

أليس من المبالغة اعتبار الشقاء ملازما للإنسانية في عمومها انطلاقا من تجـــربة شقاء ذاتية؟ هل يمكن رفع العذاب الشخصي إلى رؤية للعالم؟ يتأســـف ســـيوران ذاته من عدم المعاناة من مرض جدي. لندعه يقوم بتـــشريح وتـــشخيص حالته: "أنا رجل هائج بعض الشيء. من النوع الفالـــت مـــن مـــرض الصرع. لم يكن لي الحظ في أن أكون مصابا بالصرع. لوكنت مصابا بمرض حقيقي لشكّل ذلك لي خلاصا. ولكنني عـــشت باطنـــيا دائما لأنني لم أجد منفذا خارج ذاتي"[1]. "أحسن ما قمـــت به، يقول لنا، فيتز زورن، هو الإصابة بداء السرطان.. فمنذ أن مرضـــت، بـــدأت أرى الأشـــياء أحـــسن بكثير مما كنت عليه قبل المـــرض"[2]. هـــا نحن أمام كوجيطو من نوع آخر: "أنا أعاني إذن أنا موجـــود". لقد تعودنا مع كثير من الفلاسفة والكتاب، على تأمل الألم الإنساني، عسر الوجود، والضياع في العالم، وعلى الخصوص التفكير في القلـــق.. ها هو سيوران يدفع بالتأمل في تلك المعاناة، مرة أخرى، إلى أقصى مدى ممكن. لم يكتف بإضفاء هالة متميزة على المرض، لكي لا نقول علاجية، بل ذهب إلى اعتبار المرض أهم شرط من شروط انبثاق الجانب الإنساني في بني آدم. "كان المرض على رأس قائمة العوامل التي أدّت إلى ظهوره"[3]. "كيف أصبح الإنسان ممكنا؟" يتساءل، ويأتي رده على أهم الأسئلة على الإطلاق في جملة قصيرة سريعة، فسر من خلالها تـــاريخ التطورالإنساني الطويل: "إذا كان الإنسان قد انفصل عن مملكة الحيوانات فبدون شك لأنه أكثر قابلية منها للتأثر بالأمراض"[4]. يبقى

(1) نفس المصدر ص. 31.

(2) Fitz Zorn, Mars, Folio, Gallimard, 1979, pp. 33, 34

(3) Cioran, La chute dans le temps, Œuvres, 1131

(4) Entretiens, p. 25

المرض في نهاية الأمر ذلك اليقين الذي يدل على واقعية العالم. إنه شرط حالة الوعي أساسا. فلا وعي ولا أدب عظيم بمنأى عن الألم. يحكي لنا عـــن مقابلة له مع الفيلسوف الفرنسي المسيحي تيار دو شاردان، سأله فـــيها عــــن رأيــــه في "المعاناة والألم"، فأجابه على أنهما مجرد حادثين عارضــــين في مـــسيرة الـــتطور. "انصرفت رأسا، يقول، وأنا في أشد الـــسخط، رافضا الإستمرار في الحديث مع إنسان معتوه"[1]. تناول في كـــثير من شذراته العلاقة الوثيقة بين الألم والوعي. خصص للموضوع فـــصلا كـــاملا في كتابه "السقوط في الزمن" حيث يقول فيه بالحرف الـــواحد أنـــه "إذا مـــا كنا في صحة جيدة، فنحن غير موجودين، أو بالأحـــرى نحن لا نشعر أننا كذلك". وهو ما ذهب إليه أدورنو حينما رأى أن فسح مجال التعبير للمعاناة هو الموضوعية عينها. فلا يتم التعبير عـــن الألم إلا بشكل موضوعي. أما الفيلسوف باسكال فقد رد على إلحاح أخته التي كانت تنصحه بالإعتناء بصحته كاتبا: "أنت لا تعرفين مـــساوىء الـــصحة ولا محاسن المرض". "أنبغ ما في الحياة الألم"، قال ألفـــريد ســـوفي كاتـــبا عن الموسيقار بتهوفن. لا يقول سيوران شيئا آخـــرحينما يكـــتب دائما في "السقوط في الزمن"، أن "المعاناة إنتاج للمعـــرفة". في توسلها إلى طبيبها المعالج، تلخص فتاة، تعاني من مرض عـــضال، موقـــف أدورنو وباسكال وسيوران في كلمات بسيطة لكن مدهـــشة: "ساعدني على التخلص من الألم الذي يعذبني، تقول، لكن اتركه لي لأتمكن من الوجود"[2]. حينما نعاني، نكون أقرب إلى ذواتنا، بـــل نحس بكينونتنا الكاملة، لأن الألم والمعاناة، يقول سيوران في نفس الكـــتاب، هي أحسن المسالك للوصول إلى حالة من عدم التوافق مع

---

(1) Entretiens, p. 228

(2) Revue Française de psychosomatique n°15

العــــالم. فلا نتحرر عن طريق عبقريتنا أونكف عن كوننا دُمى، يلاحظ سيوران، وإنما بفضل آلامنا وحدها. إذ لا يكون صاحب عمق نظر من لم يكابد ومن لم يعان"[1]. لكن ما الفائدة من هذه المعرفة؟ما جدواها؟ هــــل يمكـــن أن تكون خلاصا للذات المتألمة؟ أبدا، يجيب سيوران. إنها معاناة أخرى، إذ "أن المعرفة هي التي أبعدتنا عن الوحدة الجوهرية، عن النظـــرة المتعالية..." كلما زادت معرفتنا، كلما ازداد عجزنا في إيجاد استقرار أو توازن ما. عندما يكون الجسد مصابا بمرض جدي، وحينما يجد الإنسان نفسه في أتم العجز عن العيش والفعل، يكتب البابا يوحنا الـــثاني، يـــصبح النضج الداخلي والسمو الروحي أكثر بداهة وتجلٍ، ويعطــــي ذلك درسا مؤثرا وبليغا للذين يتمتعون بصحة عادية"[2]. في مـــؤلفه "المعـــنى المسيحي للعذاب"، يتطرق البابا يوحنا الثاني نفسه إلى شـــهية العذاب قائلا: "لقد علمنا المسيح أن نفعل الخير عن طريق الألم وأن نحسن للذي يتألم"[3].

لـــئن قربتنا المكابدة من الله حسب الديانة المسيحية، فإنها تقربنا أكثـــر فأكثـــر مـــن المعرفة حسب سيوران. فكأن المرض هو القاعدة والصحة الإستثناء! في نفس "السقوط في الزمن"، لا يترك سيوران أي مجــــال للــــشك حول أضرار ذلك الوعي االلعين: "ما عسانا ننتظر من مـــسار بدأ أصلا بخرق للحكمة، بخيانة نعمة الجهل التي جُبلنا عليها". خـــيانة، عـــذاب، تمزق.. كلمات تُذكرنا بعبارة نيتشه القائلة "كأن الطبـــيعة تـــئن وتنتحب لرؤية نفسها مقطعة إلى أفراد". نتج عن تفرّد

(1) La chute dans le temps, p. 1072

(2) Jean Paul II, Le sens chrétien de la souffrance, éd. Pierre Tequi, 1984, p. 73

(3) نفس المرجع.

البشر من جراء تراجيديا الولادة ضياع في الزمن، واغتراب أبدي في هذا العالم. إذا كان فرويد يرى أن الأنا لاتكون أحيانا سيدة في عقردارها، فإن سيوران يراها دائما في منفى في هذه الدار(الذات) لأن الدار ليست دارها. فكأن الإنسان غير كامل الصنع! بل هو شيء كان لا ينبغي أن يكون أصلا كما يقول الفيلسوف شوبنهاور.

يدشن منفى الإنسان في الزمن، في المحدود، عهد الوعي الذي يفتح بدوره هوة بين الذات والعالم. "لم تمض لحظة واحدة لم أكن خلالها واعيا أنني موجود خارج الجنة"[1]. على رفضه الجذري للديانات، أجد أنه يشترك معها في أمر يشكل جوهرها: رفض الحقيقة البيولوجية، رفض الإعتراف بالنهاية المطلقة بانتهاء الجسد! لايمل ولا يكل من العودة في مجمل كتبه إلى التأكيد على أن الوعي هو في نفس الوقت مصدر ونتيجة كل مصائب البشر. هو ابن وأب الشر، إنه الجرح والسكين. فحتى الدودة لوكانت واعية، يخبرنا سيوران، لكابدت نفس المصاعب، ولصادفها نفس المستحيل الذي يصادفنا.

يعتبرالإنسان مقارنة بالحمار وبسرطان البحر حيوانا مريضا، إذ أن الوعي في حد ذاته مرض، هكذا يكتب ميغال أونامونو سنة 1937 في كتابه الذائع الصيت بين جمهور الفلاسفة، "الشعور المأساوي بالحياة". أما سيوران فينتقل بالفكرة إلى سرعة أخرى واضعا مفاضلة تسلسلية: "من الأحسن أن أكون حيوانا بدل إنسان، وحشرة بدل حيوان، ونبتة بدل حشرة، وهكذا دواليك.."، بالجملة والتجزئة، "لا أرغب أن أكون إنسانا...، أحلم بشكل آخرمن الإنحطاط". يفككنا الوعي ويرمينا بعيدا عن الوحدة الأصلية، إنه منفانا الحقيقي فـ "الجهل وطن

(1) I. E. N. p. 1288

والوعـــي منفى". الوعي لعنة مزمنة، كارثة مهولة. لكن "الوعي" بمعنى ووزن المتنبـــــي "ذو العقـــل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الـــشقاوة يـــنعم". إن وعينا هو الذي ينبهنا لوجود البشاعة في العالم. "أردنا أن نكون ذواتا وكل ذات هي قطيعة مع طمأنينة الوحدة"[1]. تبا لـــنا، نستحق كل ما لحق بنا! يرى ألبير كامو أن "لا أكثر مأساوية من كـــائن سعيد". أما صاحبنا فيرى أن المتفائل هو ذلك المسكين الذي لا تتوفر لديه كل المعطيات. "لا عسرأشد من احتمال سلسلة أيام جميلة"، و"مـــن علـــى قمم العقل تبدو لنا الحياة كلها كمرض عضال والعالم كملجـــإ مجانين"، يقول غوتة. كثيرا ما تحدث سيوران عن كتاب ألفه كاتـــب ألمـــاني مغمور، يقول عنه أنه من أردأ ما قرأ من كتب إلا أنه يحمـــل عنوانا من أروع ما يمكن، عنوان لم يحمله كتاب قط، ألا وهو "مـــصيبة أن يكـــون المرء واعيا". لا عجب في إعجابه بالعنوان إذ أن العبارة تلخص في رأيي حياته كلها. ألم يكن يعتقد أنه كان واعيا فوق اللـــزوم وهو ما عكر صفو حياته وجعلها شبه تراجيدية؟ الوعي شرخ وخلاف مع العالم، إنه ليس مجرد شوكة بل هو خنجر مغروس في عمق الجـــسد[2]. أن نتـــيه ولا نعـــرف أين نمضي، ذلك هو وضع الإنسان التـــراجيدي، المنفـــصل عن المعنى، يؤكد الفيلسوف باسكال أما أرتو الـــشاعر فـــيلاحظ: "حينما أتساءل، لا يجيبني إلا العدم ذلك الفراغ الفظـــيع الأليم". أين المفر أمام هذه الطامة الكبرى؟ هل هناك حل ما؟ نعـــم، يقول سيوران. ما العمل؟ "كل ما يقلّل من هيمنة الوعي ويعيد النظـــر في جبروته". ألا يتوق الإنسان إلى العودة إلى الوضع الذي كان

(1) La tentation d'exister, Œuvres, p. 828

(2) I. E. N., p. 1299

عليه قبل الوعي؟ أليست الطريقة الوحيدة ضد "الأنا، ضد شرالتفردن، ضـــد تأثيرحالـــة الوعـــي المضنية". لنرفع الكؤوس على نخب الجهل، لنسكر، لنفلت من حالة الوعي! ألا يقول لنا باسكال أن في قنينة النبيذ مـــن الفلـــسفة ما يفوق كل ما في الكتب؟ إذا كان الموت شيئا مقدرا فمـــن العار أن تموت صاحيا، يقول أحد الأجداد المؤنسين. في مسألة الخـــلاص الـــتي أرّقـــته، نجده كثيرا ما يلجأ إلى الإستئناس بالمذاهب الغنوصية، التي تقترح هي الأخرى خلاصا خارج إطار المعرفة العقلية. لايخفـــي إعجابـــه في "الخالق السيء" بالغنوصي باستيليد: "من العقول القلائـــل التي فهمت في بداية عصرنا ما أصبح اليوم أفكارا عامة، وهي الأفكـــار الـــتي تشرط خلاص الإنسانية بوجوب عودتها إلى حدودها الطبيعـــية، مـــن خلال الرجوع إلى حالة الجهل الأولى"[1]. فالجنة هي حيث لا نفهم، يقول. يا معلمي العالم أغلقوا كتبكم! ويا تلاميذ رتبوا أدواتكـــم! فقد حان وقت التسلية الأبدي، لنغلق المدارس كلها! ياقوم ناموا لا تستيقظوا ما فاز إلا النُوَّمُ، وظلوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا. تمنيت أن أقرأ هذا البيت على مسامع سيوران، ولكن سبقني إليه مرض الألزايمـــر اللعين. ينبغي على الإنسان أن يتجاوز حالة الوعي وأن يترك مغامرة المعرفة، ينصحنا العم سيوران في "كراس تالاممنكا"[2].

كـــيف يمكن أن نكون في عالم بدون وعي؟ على أحسن ما يرام، يمكن أن يجيب. فمرحبا أيها الجهل في مملكة سيوران! أنت لست منفى كمـــا زعـــم اسبينوزا، بل أنت خلاصنا، علينا أن نجعلك ضرورة، لا مفـــرمنها. "اعتراض ضد العلم، هذا العالم لا يستحق أن نعرفه"، كتب

(1) Le mauvais démiurge, œuvres, p. 124

(2) Ed. Mercure de France, 200, p. 16

صـــاحبنا ذات عام. كان التفردن (التحول إلى فرد مستقل عن العالم) كمعانـــاة وشقاء، الوعي الشقي، والأنا كوجع من الثيمات التي جرى الـــتأمل فيها سابقا من طرف الربيين اليونان وغيرهم وقد احتلت هذه المـــسائل مكانا مركزيا في صفوف البوذية على وجه الخصوص. إلا أن أصـــالة ســـيوران قد تمثلت في نبرته الخاصة، في الإخراج، في الديكور الـــذي يقترحه، كدت أقول على مشاهديه. وتكمن جدته، أيضا، في المسافة التي يضعها بينه وبين معظم المفكرين والمذاهب. ها هو ينفصل قـــولا، بـــل يتـــبرأ تماما من سلفه الغاضب نيتشه: "لقد آمنا مع نيتشه بديمـــومة حالات الوجد، إلا أننا، وبفضل نضج استخفافنا بكل شيء، ذهبنا أبعد منه كثيرا، فغدت فكرته عن الرجل الأسمى مجرد وهم بالنسبة لـــنا، وهكذا سقط من كان يسحرنا أيام الشباب"[1]. يعترف الروماني أنـــه مشى شوطا مع الألماني ولكنه رفض فكرة السوبرمان وامتداداتها: تغـــير القيم، إرادة القوة وغيرهما. يعتبر سيوران مملكة اللاجدوى أفضل مكان في العالم. فمن البداهة أن يشك في محاولة تغيير العالم الشهيرة التي جـــاءت بها الماركسية: الخلاص الشيوعي. أليس هو القائل في' مخطط الدوار': "تبدو كل طوباوية في طريق التحقيق كحلم مزعج"[2]. "كلما قرأت المتشائمين أحببت الحياة أكثر"، يكتب في "دموع وقدّسون" و لم يكـــن قـــد تجاوز الثانية والعشرين بعد. "أتصرف وأستجيب كعاشق سعيد بعد كل قراءة لشوبنهاور". لكن إن كان شوبنهاورمحقا في اعتبار الحـــياة مجـــرد حلم، فإنه يرتكب كبرى الكبائر في نظره عندما يعري الأوهام بدل تشجيعها، موحيا بوجود شيء آخر غيرها.

(1) Syllogismes de l'amertume, p. 761

(2) Cioran, Ebauches de vertiges (extrait de Ecartèlement), Gallimard, 2004, p. 12

لم يـــشف غليله حتى جهابذة التشاؤم أنفسهم، فاعتبرهم سذجا وراح يـــسقطهم الـــواحد تلوالآخـــر. لم يرض بل خاب ظنه في كل أصـــناف الخَـــلاص الـــتي اقترحها الفكر الغربـــي، فاتجه نحو الفلسفة الـــشرقية، لعله يجد فيها ضالته. ألا نقول أنه كلما وجد الفكرالغربـــي نفسه متخبطا في شَرك تناقضاته، ينحو نحو الهند، مهد النظم الروحية؟ في الـــيوم الـــذي قرأت فيه قائمة كل الكلمات التي تتوفر عليها اللغة الـــسنكريتية في الإشارة إلى المطلق، يقول متأسفا، تيقنت بأنني أخطأت سبيلي ووطني ولغتي[1]. لم تغب أبدا، بقت مسألة الخلاص حاضرة في التأملات السيورانية بشكل أو بآخر.

حاول في أول الأمر أن يجد مفتاحها أو بالأحرى مفتاح خلاصه في الإرث الروحـــي الـــبوذي وتحديدا في مبدأ الزهد والتخلي عن كل شيء، الأمر الوحيد غير المهين في رأيه. فلا يتأتى الخلاص إلا عبر الترفع عن تفاهات الحياة. "أمثل الحالات، يكتب متصوفنا الباريسي في 'خالقه الـــسيء'، هي تلك التي نتخلى فيها عن الأشخاص والأشياء دون أدنى عـــناء" [2]. أما الصحة فإنها "تكمن في التمرين والفراغ، في العضلات، ولـــيس في الفكـــر على الإطلاق"[3]. لنعتن بعضلاتنا، ولنترك عقولنا تـــستريح! لنشيّد قاعات لممارسة بناء الأجسام! لنعوذ بالجهل من شر العلم ومن شر الوعي الوسواس!

أن نكون أو لا نكون؟ ليست تلك هي المشكلة. لا هذا ولا ذاك. فمـــا الأمل سوى الشكل العادي للهذيان، بل أقبح من ذلك، فهو في نظـــر سيوران فضيلة العبيد. تلتقي نظرته للوجود مع المذاهب الروحية

(1) I. E. N., p. 1313

(2) Le mauvais démiurge, p. 1221

(3) نفس الصفحة.

أكثر من التقائها مع المذاهب الفلسفية الكلاسيكية. ليست السعادة في الرغبة بل في انتفائها، فلا تغمرنا إلا في حالة غيابها الكلي، فقط عندما نـــصل إلى الشعور بالإمتلاء أو الفيض بلغة أهل التصوف، ننعم بنشوة الأبديـــة وحـــضرة المطلـــق أو كما يقول أصدقاؤنا المتصوفة "سدرة المنتهى". يطغى هنا الجانب الشرق - أقصوي للروماني. السعيد السعيد مـــن فقد كل أمل، فالأمل عذاب لا يطاق واليأس نعيم عظيم. فماذا باستطاعتي أن أعرف؟ ماذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ ماعساني أن آمل؟ "لا شـــيء، لا شيء"، لا خوف من وضع هذه الإجابة على لسان "أبـــي علاء القرن العشرين" للرد على ثلاثية إمانوييل كانط التساؤلية الشهيرة! مـــثله مثل ديوجان ذلك "الهيبـــي المبكر"، فبغض النظر عن تلميحات هـــنا وهناك لم يقترح سيوران شيئا ملموسا من أجل خلاص البشرية. فكـــل الطـــرق تـــؤدي إلى الهلاك في نظره. يقترب من نظرة صديقه ســـامويل بيكت الذي يقول: "يقترح المفكرون الشرقيون مخرجا، وأنا أعـــتقد عدم وجود ذلك. لاحل إلا الموت". لكن حتى الموت، لا يمثل حلا في نظر سيوران! فهل طعم العدم بعد الموت هو نفسه قبل الولادة؟

تذهب تأملات وأفكار سيوران كلها نحو تمجيد حكمة واحدة هـــي محاولـــة العيش بدون أدنى هدف. "فحينما نفقه ألا شيء على الإطلاق يستدعي الإهتمام، نصل إلى مرفأ النجاة ولكننا نصبح أشقياء وإلى الأبد". إنها حكمة الهلاك والعدم. على الرغم من ودّه وصداقته لمباديء البوذية الكبرى والتي نجدها متناثرة في معظم كتبه وعلى وجه الخصوص في فصل من فصول 'الخالق السيء' إلا أنه لا يدعي أنه كان في يـــوم من الأيام بوذيا مؤمنا. "أنا بوذي فيما يخص استنطاق الألم، الـــشيخوخة والمـــوت فقـــط. ولكن حينما يقول بوذا: والآن اقتلوا الـــرغبات وانتـــصروا على الذات وأهوائها! لا أستطيع". فلماذا هذا

العجز إذن؟ لأني عشت في الأدب، يشرح لنا، فكل ما كتبته يدور في العمـــق حـــول شخـــصي، حول أناي. وهذا يتناقض تماما مع روح البوذية. زد على ذلك، أنه من العبث واللاجدوى البحث عن النجاة، يقـــول، في حالة ما إذا لم نكن نؤمن بالتناسخ[1]... ولم يكن مؤمنا ببدوية الأرواح. فكأنه يصل إلى عنق الزجاجة، إلى طريق مسدود. إذا كان هناك مشروعية للحديث عن خلاص ما، فلا يمكن الإقتراب منه إلا في بُعـــد ذاتي متفـــرد: "لا يمكن أن يكون إلا إذا كان نابعا منا، يكتب في 'إغواء الوجود'، فلا يجب البحث عنه بالمرة في مكان آخر، في مـــنظومة جاهزة أو في مذهب شرقي ما". أين المفر إذن؟ يمكن أن نجد لسيوران نسبا روحيا في كل مكان ولا نجد له ذلك في أي مكان أيـــضا. تظهر "كراساته" المنشورة بعد وفاته وبشكل جيد كيف كان يستل آراءه من النوادر والحكايات البسيطة، من القراءة ومن معايشة الآخرين. لم يصل سيوران في مشواره الفكري الطويل إلى طمأنينة غير تلـــك الـــتي فرضها تقدمه في السن. فإن لم يصل إلى السلم الفلسفي فلقد عثر على أثمن من ذلك بكثير ألا هو تفرّده. "عشت حياتي كلها، يعترف، وأنا أشعر أنني أبعدت من مكاني الحقيقي. لو لم يكن لعبارة "المنفـــى الميتافيزيقي" أي معنى، فحياتي وحدها تَهبها معنى". فـــ "أنا غريب في نظر البوليس وفي نظر الله وحتى في نظري أنا". يرى نفسه متـــشردا ميتافيـــزيقيا، قـــريبا مـــن الرواقيين الذين عاشوا في نهاية الإمـــبراطورية الـــرومانية والذين كانوا يعتبرون أنفسهم من "مواطني العـــالم"، وهـــي طريقة أخرى في التعبير على أنهم لا ينتمون إلى أي وطـــن. "إنسان يحترم نفسه هو إنسان بلا وطن"، يلاحظ فيلسوفنا. ويتنبأ بأن عصرنا سيكون موسوما برومانسية معدومي الجنسية.

---

(1) Entretiens, p. 83

لـــيس مـــن الغريب أن نراه يختم مغامرته بجرد لتجربته الروحية والفلـــسفية معترفا بطريقة تثير مزيجا من الشفقة والإعجاب: "على كل حال، لم أهدر وقتي، تململت كغيري، أنا أيضا، في هذا الكون الضال". هكـــذا حكـــم علـــى تجربته عبر آخر جملة في آخر كتاب "اعترافات ولعـــنات"[1]. فكأنـــه يعترف أنه قد مارس فضيحة الحياة كغيره وهو مـــستعد لممارسة فضيحة الموت أيضا. يمكن أن يقول مع فاليري "لقد كرهت نفسي وعبدتها، ثم هرمنا معا". لكن إذا كان أيوب قد تاب في النهاية وقال معترفا بقدره ومستسلما: "أسحب شكواي"، فإن سيوران قـــد أبقى على شكواه إلى آخر المشوار، فكأنه "من الخطر العيش ولو يـــوما واحدا"، كما تقول عبارة فيرجينيا ولف[2]. وربما تكمن أصالته في هذا المزاج الغاضب والمرح في آن، والذي يعطي نفسا غنائيا لكتابته، تلك الكتابة ذات الطعم السير - ذاتي والتي تبقى في غليان دائم، وحبلى بفكـــر شخصي عميق ولكن دون بلوغ غاية ما ودون استسلام نهائي. "الـــشعور بأننا كل شيء والبداهة بأننا لا شيء"، كما كان يقول بول فاليري.

(1) Aveux et anathemes, p. 1724

(2) Virginia Wolf, Mrs Dalloway

هل تتوافق الكتابة الأنيقة مع الفكر المتشائم؟

"لا أسلوب مع اليقين. الإنشغال بتجويد القول من مميزات من لا ينامون على عقيدة. إنهم يتعلقون بالكلمات، تلك الشبيهة بالواقع، في غياب الأرضية الصلبة. أما الآخرون الأقوياء بقناعاتهم فيهزؤون بمظهر الكلمات ويسترخون في الإرتجال"

سيوران

في محاضرة تحت عنوان 'تمارين الحقد، سيوران ومستقبل رومانيا'، ألقاها أمام جمهورغفير في الجامعة الصيفية بجزينة الذكر، مدينة تيميشوارة الرومانية، تحدث إيون فيانو عن الدور الذي لعبه الحقد في بحث سيوران الروحي، ها هي ترجمة لبعض أسطر اخترتها منها، لدلالتها على موقف المحاضرالناقد: "ظل سيوران قرابة نصف قرن الشاهد على المعركة التي واجه فيها نفسه والقوى الخارجة عن الزمن والتي تولد الزمن في آن. لقد عاش وهو شاب يافع بعض حالات، لمح أثناءها بعض "ما وراء". ولكنه حينما أدرك أن تلك النعمة قد ولت

دون رجعـــة وإلى الأبـــد، سقط في كآبة مهولة وكان من المحتوم عليه اختلاق الحيل ليتمكن من الإستمرار في العيش. وكان من أهمها ممارسة التعصب والحقد. لئن ندم بعد ذلك وحاول تجريب الشك والسخرية، فـــإن الغـــضب لم يفارقه إلا بعد أن نال منه الوهن والملل"[1].ها هو صـــاحبنا يُلخص ويُحصر في مجرد حنين إلى حالة من الوجد قد نعم بها ذات يـــوم! في كتابه 'سيوران المهرطق'[2]، يذهب باتريس بولون إلى أبعـــد من سابقه فيانو، فيتحدث عن "ولادة ثانية لسيوران"، ابتداء من 1949، سنة نشر 'موجز العفن'. كتابه الأول باللغة الفرنسية.

إذا كـــان فـــيانو يـــتحدث عن بحث سيوران عن حِيَل وإخراج ســـيناريوهات بغية تجاوز ماضيه، ويلمح ضمنيا إلى معاداته للسامية في مـــرحلة الـــشباب، فلا يرى باتريس بولون في أدب وفلسفة المسكين سيوران سوى محاولة تَنَكُّر لذاك الماضي غير المشرف وتطهير ونقاهة من كـــل ذاك الذي عاشه في بلده الأصلي: كتاباته هروب من انـــزلاقات الـــشباب وتكفـــير عما فكر وكتب في تلك المرحلة الرومانية. لم يكن مـــستجوب العدم سوى مُواربا كتوما إذن! تساءل رولان جاكار، من جانـــبه، عمـــا إذا لم يكن من الواجب النظر إلى شك سيوران المطلق لاحقا على أنه تعبير عن ندامة وتأنيب ضميرشديدين؟[3]

صـــراحة أو تلميحا، يعيد الكثير من النقاد إلى الواجهة 'تحولات رومانـــيا'، ذلـــك الكـــتاب الذي أصدره باللغة الرومانية سنة 1937، وهوكتاب ذو اتجاه قومي يحتوي على أفكار معادية للسامية والأجانب، لا أريـــد أبدا تبييض تلك الصفحة السوداء من حياته، إن قلت أن ما

(1) Lectures de Cioran, p. 99

(2) Patrice Bollon, Cioran l'hérétique, Gallimard, 1997

(3) Le Monde du 12 mai 1995

كتبه لم يكن غريبا عن ابسيكولوجية مرحلة الثلاثينات. من السخافة أن نعتمد عليها لتصنيف سيوران ضمن قائمة المفكرين الفاشست، قال لي يوما الأستاذ والفيلسوف الفرنسي فيليب لاكو لابرت في جامعة استراسورغ. أفكار تَبرأ منها سيوران ذاته واصفا أياها بالغباء وبالغرور. لقد قيل الشيء ونقيضه بشأنه، كان عرضة لترسانة من الألقاب، قاسية أحيانا ومثيرة للشكوك أحيانا أخرى. هو"بطل الحقد"، "الغاضب الدائم"، "المتسكع صاحب الأفكار السوداء"، "الكلبي المسعور"، "الهاوية"، "الفاشي" وغيرها من عناوين الكتب والمقالات. لا تعد ولا تحصى الرصاصات التي أطلقت على "رسول الشؤم" و"نبي التحلل والدمار"، وقد أفلحت في تقديم كاريكاتور لا يمت لسيوران بصلة في أحيان كثيرة. "هل كان سيوران دنيويا مرحا متنكرا في ثوب مُهرجٍ حزين أو ساخط لا يبرأ، يتصنع الضحك؟" يؤكد سؤال إذاعة فرنسا الثقافية الذي طرحته سنة 2007، مرة أخرى صعوبة نمذجة الرجل أو تصنيفه. تساءل الكثيرون عن مدى توافق "سيوران الأسلوب الأخاذ" و"سيوران عالك المرارة". يذهب الكاتب يونسكو إلى حد الحديث عن كآبة مفتعلة غير أصيلة لدى ابن بلده، مؤكدا استحالة أن تتماشى الكآبة الحقيقية والسأم مع الأسلوب الجميل، معيدا النظر في صدقية صديقه الحميم(1). لاحظ كافكا، من بين كثيرين، في 'يومياته' مفارقة الكتابة عن الشقاء بكلمات السعادة. ولئن كان الموضوع قديما في ما يتعلق بالأسلوب، فإننا نجد في يوميات إيتالو سويفو ملاحظة تسر يونسكو وتعقد من حالة صديقنا سيوران: "عرفت شخصا يكتب ببراعة إلى حد لا يمكن أن نتصوره صادقا". فهل يمكن أن نسحبها على

(1) Magazine littéraire, septembre1995

سيوران ونشك في تأكيده وترديده في مناسبات كثيرة أنه لم يكن "إلا سكريتيرا لأحاسيسه وأنه لم يبدع شيئا". ألم يكن العفريت ممزقا إذن، كمــا كـــان يدعي في كتاب'التمزق'؟ هل كانت حالاته الدرامية غير حقيقية، مجرد اختلاقات مكتوبة ومصاغة جيدا؟ وهل كل ما كتبه كان مجـــرد كلمات.. كلمات.. كما تقول الأغنية؟ أكان حقا مدعي قرف ومُفـــبرك أحـــزان على الورق؟ بعد مضي خمس سنوات على رحيل سيوران، يحاول المفكر والروائي الفرنسي باسكال بروكنر تحقيق ضربة قاضـــية: "ســـيوران الذي تغنى بالإنتحار كتابا تلو آخر، انتهى ببلاهة، مـــات بالـــشيخوخة. ومغزى ذلك أنه ليس من السهولة دائما جعل الأفعـــال في تناسق مع الأفكار"[(1)]. ويتبع فيليب تيفرو نفس اتجاه هذا الـــريح المـــرتاب، فحسبه "لا يمكن لعَدمي محبط أن يكتب بنفس هذه الموهـــبة وهذا الأمل طوال نصف قرن"[(2)]. "لست عدميا: اللاشيء هو برنامج أيضا"، كان يجب أن يردد ذاك "المحبط الموهوب". "أمام تفاهة أي رد فعـــل حيال زلزال الولادة، لا نملك سوى رسم ابتسامة باهتة". ولكـــنه لم يكتف بتلك الإبتسامة الصفراء أمام عار الكينونة، كما كان يقـــول، بـــل وقف طويلا يتأمل مصيبة مجيئه إلى الدنيا. هل هي حيلة أخـــرى من أجل البقاء، كما زعم فيانو سابقا؟ هل هو عشق للمسائل المستعصية؟ كيف يمكن لإنسان المحافظة على حيوية عقل كهذه إذا كان مـــنخورا مـــن الـــداخل وملغوما بمأساوية؟ ما سر تلك الكآبة المفعمة بالحياة؟ هل نصدقه حينما يكتب أنه يتذكر جيدا وهو طفل صغير تلك

(1) Pascal Bruckner, L'euphorie perpétuelle, essai sur le devoir de bonheur, Grasset, 2000, p. 247

(2) Philippe Tifferau, Cioran, La dissection du gouffre éd. Henri Veyrier, Paris1999, p. 155

اللحظـــة التي اكتشف فيها "الإحساس بالفراغ"، وذلك الإنطباع بأنه "قـــذف خـــارج الزمن"، وأنه لم يكفّ أبدا عن" مكابدة هذا الخواء" الـــذي أصبحت معايشته شبه يومية؟ ألا نعثر في شخص سيوران على إنـــسان القرن العشرين ذلك الذي قُدم بطلا على ركح المسرح وحُلّل في الـــرواية وشُـــرح في المـــصنف الفلسفي؟ ذلك الكائن الغريب عن الآخـــرين وعن ذاته، المرمي في ضاحية المطلق حيث لا يقدر إلا على التيه. أليس هو ذلك البطل الذي تخيله كافكا، كامو، يونسكو، بيكت وآخرون والذي لم يستطيعوا أن يكونوه في حياتهم الواقعية؟

ظلت الفلسفة عند سيوران نشاطا فكريا شديد الصلة بالحياة. لا تنفصل بتاتا عن طريقة عيشه. "ماذا تفعل من الصباح إلى المساء؟ أتحمل عـــبء ذاتي"، يجيب[1]. ليس من المبالغة القول أن الفلسفة أعادت معه اكتـــشاف هويـــتها الأصلية إذ هو الفيلسوف الوحيد بالمعنى اليوناني الصارم للكلمة، ذلك الغائب منذ زمن طويل. لكن إذا كان يعرف في سن العشرين ما يعرفه في الستين من عمره، كما كان يحلو له أن يردد دائما، ما جدوى إذن وما دلالة تلك المراجعة الطويلة المدى التي جاءت في أكثر من خمسة عشر كتابا، خمسة وثلاثون كراسا مخطوطا، مراسلة غزيرة، وأكثر من مئة مقابلة منشورة؟ فحص دام أكثر من أربعين عاما وصـــفه هـــو نفسه بالعمل "غير الضروري" و"الفائض"[2]. ولكن من حـــسن حـــظ قـــرائه كان "التفتيش" مقدما في أجمل حلة ومصاغا في أسلوب من أكثر الأساليب التي عرفتها اللغة الفرنسية أناقة. أما ما كتبه بلغة أمه فيرى فيه مواطنوه أنه كان في لغة غنائية راقية ومجنونة. يبدو لي

(1) Œuvres p. 1292

(2) I. E. N., p. 1274

أن أناقـــة الكلمة الخارقة للعادة، لا سيما حينما يكون صاحبها دخيلا، هـــي الـــشجرة الـــتي غطت الغابة، أقصد أن الأسلوب قد غطى فكر سيوران وفلسفته وقد ساهم في تهميشه فلسفيا لمدة طويلة جدا إذ طرد مـــن مملكة سقراط وافلاطون في بلاد الفرنسيس. لم يعترف هو أيضا بـــتلك الفلـــسفة الجامعـــية. لا تجارب في رأيه لا غرورنا ولا تفاهتنا ولاإعجابـــنا بأنفسنا مثلما كان يريد لها مونتاني أن تكون. كما أنها لا تعتـــرف بأمانـــة بحيرتها، ترددها، ضعفها وجهلها. دون عناء، يلاحظ قـــارىء الكـــتابات التي قدمته إلى الجمهور العريض في بداية مشواره الأدبـــي في فرنـــسا أن "المُقدمين والنقاد"، لم يروا في عمل المغترب الروماني الأدبـــي والفلسفي سوى مظهره الخارجي، قشرته. لكن هل نرى شيئا آخر لدى الأجنبـــي غير ذلك؟

في 1950، بعـــد مـــرور عـــام على ظهور كتابه الأول في اللغة الفرنـــسية، يكتب الكاتب الفرنسي كلود مورياك محتفلا: "ها هي ذي نبرة ولغة معلم بارع".. ويعيد الكرة بعد ست سنوات، مدققا إعجابه: "هو روماني مغترب يعد اليوم من أحسن الكتاب الفرنسين... تستطيع قلـــة من الكتاب الفرنسين فقط، يضيف مورياك، إتقان لغتنا بمثل هذه المعـــرفة"[1]. "إنـــه المعلم السيد دائما"، حسب أندري تيراف، بل هو "صـــاحب ألمع أسلوب لدينا" يكتب آلان بوسكي[2]. أما الفيلسوف غابـــريال مارســـال فيكـــتب بكـــل بـــساطة: "أنا معجب بأسلوب سيوران"[3]. كتب موريس نادو أول مقالة عن الفيلسوف سنة صدور

Preuves, n°70: «Cioran et la tentation du néant» (1)

Etudes, Un cynique fervent, 2 déc. 1962 (2)

Etudes, Un allié à contre - courant, 28 juin 1969 (3)

"موجـــز العفـــن"، (1949) وجاءت مرحبة: "ها هو قد جاء من كنا ننتظـــره، رسول زمن المحتشدات والإنتحارات الجماعية. ها هو ذا من عبّد الطريق لمجيئه كل فلاسفة العدم والعبث، لقد وصل حامل الأخبار المـــشؤومة"[1]. وفي ســـنة 2006، لم يـــر بيار أسولين في سيوران غير "أســـتاذ تـــشاؤم يعج نكتا"[2]. لكن أغرب ما قرأت في الموضوع هو تأخـــر اكتشاف الفيلسوف الفرنسي الشهير مارسال كونش لسيوران: "لم أسمع عنه شيئا قبل سنة 2006"[3]، يقول!

أجمـــعَ الناس في فرنسا على أصالة أسلوبه وإيجازه البليغ وكثيرا ما قورن بفولتير ومفكري القرن الثامن عشرالمعروفين كأخلاقيين، وهو ما ساهم بقدر كبير في إنـــزال فلسفته أو محتوى فكره إلى درجة ثانوية. وربمـــا نحـــن أمام ظاهرة أدبية غير مسبوقة تمثلت في طغيان شبه كلي للشكل على المضمون. فكأن أسلوب سيوران غاية في حد ذاته، يمكن أن يكـــون مـــستقلا تمام الإستقلال عن الفكر الذي يحمله! لم يُنصف عاشـــق الـــتجوال في حديقة لوكسمبورغ، ركّزت الكتب القليلة التي خصـــصت لـــه ابتداء من الثمانينات في معظمها على أصالة طريقته في الكـــتابة، وتـــشاؤمه ودعابته السوداء. لم تعره الدراسات الجامعية في فرنـــسا اهـــتماما إلا مع بداية التسعينات. وهوما جعل فلسفة سيوران فلـــسفة بدون مأوى قار. فليس لكتبه رف معين في المكتبات، فهي هنا مع كتب الأدب وهناك مع كتب الدين، وقد وضع 'موجز العفن' مرة مـــع كتب الكيمياء! لئن كان الحال هكذا في البلاد التي اختار لغتها، فإنه يحظى باهتمام كبير في بلدان أخرى كثيرة حيث ترجمت أعماله إلى

---

(1) Combat

(2) Le Monde 2, du 07 janvier 2007

(3) Philosophie magazine n°1, avril-mai 2006

معظم اللغات ودخلت أعماله إلى برامج معظم الجامعات العالمية. نوقشت حول فلسفته أطروحات كثيرة في إسبانيا وألمانيا وإيطاليا.. أما في فرنسا فلم يكن موضوعا للبحث الجامعي إلا في عدد محدود من الأطروحات.

أنا فيلسوف عواءٌ!

"الكـتب الوحـيدة التي تستحق أن تكتب هـي تلك التي يؤلفها أصحابها دون أن يفكـروا في القراء ودون أن يفكروا في أي جدوى أو مردود"

سيوران

اتهمـه أعداء كتابته بالتحايل وتصنّع القرف وتوابعه. ضجر غير حقيقي، لّمح بعض الأصدقاء. حقدٌ مكتوب، تنصل وتنكرٌ للوطن، يحتج الـرومانيون، مواطنوه السابقون[1]. لم ير أغلب المعلقين في أدبه سوى مجـرد عمـل أسلوبـي، عبث بالكلمات... "إذا كنت تؤمن بكل ما تقـرأ، فمـن الأحسن لك أن تكف عن القراءة". يمكن أن ينطبق هذا المثل الصيني على ما قيل وما سيقال عن سيوران. على الرغم من كثرة الكتابات في هذا الإتجاه أوذاك، يبقى ما خلفه عملا أدبيا – فلسفيا من طراز جديد، يحمل فكرا أصيلا. ولئن عبّر عن هذا الفكر بأسلوب فريد وجـذّاب للغاية، يبقى هذا الأسلوب الذي كثيرا ما نال إعجاب بعض النقاد وأجّج غيرة بعضهم وسُخط البعض الآخرجزءا لا يتجزأ من كل.

---

(1) A. Laignel-Lavastine, Cioran, Eliade, Ionesco. L'oubli du fascisme P. U. F., 2002

ألا يفكّــر كــل إنسان بلغته الخاصة وبالأسلوب المناسب لطبعه؟ يخيّل للقاريء لأول وهلة أنه أمام استعراض لعضلات بلاغية: مجاز مستحيل من هنا وتشبيه غريب من هناك... يدفع سيوران اللغة العادية من كل الجــوانب لتعبر عن أقصى معنى ممكن. مثله مثل نيتشه الذي يستعمل الكلمات الصغيرة المُهانة والمعقوفة، على حد قوله، بل يَستحسن التقاط من تحت موائد العشاء ما يسقط من كلمات. لا يمكن النظر إلى تجربة "أيــوب القرن العشرين الإفتراضي" على أنها مجرد تمارين في الأسلوب، ســيناريوهات في الــسأم والإستياء والضجر أو تحايلات على سيرة في الشباب كانت مشبوهة. ولكن لا نستطيع في المقابل نفي أو تأكيد ما جاء حوله من أحكام بشكل قطعي إذ أن كل حكم نهائي في شأنه يعد جــرأة مُغامِــرة، ففكــره لا يستجيب بيسر للتحليلات والتفسيرات الكلاســيكية. يجد القاريء نفسه في حضرة تأمل تطبعه سمة شخصية بــارزة، ويُطعّمــه فــيض مــن الأفكار البوذية والصوفية والغنوصية والفلــسفية... متأتية من قراءات متناقضة شكلت في النهاية كوكتيلا متفجرا، يخلق صعوبة إضافية في تحديد هوية فلسفية ثابتة لسيوران. على رغم خلائها من المصطلحات الفلسفية التقنية، تشكل "كتابة" ابن القس في النهاية، تصورا أصيلا للعالم وتطرح بقساوة مشكل الإنسان الوحيد، حــسبه، ألا وهو وجود الإنسان ذاته، جدوى هذا الوجود في العالم، وعبثية الوضع الإنساني وما يترتب من نتائج جراء ذاك العبث.

تُــصّعب طبيعة نتاجه الأدبــي مهمة القاريء المولع بالتركيبات النظــرية، يــأتي هــذا النتاج في معظمه على شكل مصنفات شذرية، مقطعية تدور حول عدد من المسائل الرئيسية، بل الإستحواذية، وذلك في تــأملات متقطعة تأتي مرة على صيغة أفكار مبعثرة وتارة كملاحظات عابــرة مصاغة في جمل مقطعية. يبدو أحيانا أن هذه الخواطر السريعة

المكـــثفة آتية من بعيد، أبعد من الكتابة ذاتها، فتتجلى كـــ "ومضات وعـــي"، مـــا علـــيه سوى نقلها على الورق كما هي، على حد تعبير فابـــريس زيمر في كتابه 'سيوران، رحلة في أعماق الأنا'[1]. إشراقات شـــعرية ولكنها لا تهبط عليه كالوحي من السماء الأرفع، بل يسبقها عمـــل تولـــيدي تنبـــثق مـــنه صيغتها النهائية. تصدر الحكم القصيرة السيورانية في أغلب الأحيان عن نوع من الحقيقة الشعرية مرتبطة أشد الإرتباط بالإحساس، كما هو الحال لدى نيتشه. لا يبتعد سيوران كثيرا عـــن حقـــيقة أمره حينما يكتب مؤكدا في كتاب 'التمزق' أن: "كل الأمـــور التي تطرقت لها، كل ما قلته على مر السنين، يبقى وثيق الصلة بما عشت. لم أبدع شيئا"[2].

هـــل نعـــدم الحديث عن وجود نسق سيوراني ما؟ نحن فعلا أمام أفكـــار متناقـــضة. يمكن أن نقرأ في نفس المصنف بل في نفس الفصل شذرتين متعارضتين، ولكننا سرعان ما نعثر في نفس الكتاب أوالفصل أو في موضع آخر على شذرة ثالثة لا أقول بأنها توفق بينهما وإنما تخفف من حدة تعارضهما. على عكس ما يعتقد الكثير من المعلقين، لا يمكن اعتـــبار الكـــتابة المتقطعة الشذرية، على الأقل في حالة سيوران، تشظ للفكر. إنها أكثر ملاءمة للذات الكاتبة الحرة، المنعتقة من كل مرجعية، المـــتحملة لمسؤولية تناقضاتها، والتي لا تستطيع التعبير عن كنهها بأمانة إلا عـــن طريق الكلمة المقطعية، الوحيدة التي تجيز قول الشيء ونقيضه دون أدنى خـــوف من السقوط في التناقض. وهو شعور كثيرا ما يستبد بأهـــل الكتابة المتواصلة، فيصبون اهتمامهم على تماسك النص المنطقي

Magazine littéraire, n°360, déc. 1997 (1)

Ecartèlement, Œuvres, p. 1486 (2)

أكثر مما يبحثون عن الصدق في القول. تخضع الأعمال ذات النفس الطويل لمتطلبات البناء وهاجس التتابع وهذا الإفراط في التماسك يجعلها بعيدة عن الصدق.

الأفكار الحقيقية تساؤلات، وما التفكير إلا تساؤلات متقطعة، يقول موريس بلانشو. في النص المقطعي، غير المتواصل، لا يلح الكاتب ولا يبرهن وإنما يؤكد. يقول الروماني المتفرنس مفسرا تلاؤم هذه الصيغة السريعة مع ذهنيته الإنكارية: "لا أبرهن أبدا، أطلق أحكاما، أصدر مراسيم، ما أقوله يكون دائما نتيجة لشيء ما، لسيرورة داخلية". "أكتب الشذرة ليتسنى لي التناقض مع نفسي. التناقض جزء لا يتجزأ من طبيعتي، وطبيعة كل الناس على كل حال". إن كانت الشذرة السيورانية لا تهدف إلى أي استنتاج أو إقناع، فإنها تطلق من حين لآخر وميضا من الصفاء يبدو فيه العالم فاقدا لكل معنى. بقي سيوران وفيا لنزعته القلقة الممزقة، محافظا على نبرته المعتادة وطابعه المميّز إلى آخر قطرة من حبره. كانت كتبه تعبيرا طويل النفس عن تجربة "فشل معلن"، يمكن أن تُقرأ كرسالة لطيفة مطولة حول طريق الإنسان المسدود ولاجدوى مسعاه في هذا الوجود. سار على درب الأخلاقيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، فهو يُدين، يحكم على الأشياء ويعيد النظر في كل أمر على منوالهم. لم تكن عينه الساخرة والقاسية ترى سوى ما كان سلبيا في الإنسان والمجتمع، فصب جام غضبه عليهما مستعملا ألذع النعوت.

يقول الكاتب الفرنسي الشهير مونتاني أنه كان مادة لأدبه. يمكن لسيوران أن يقول نفس الشيء وزيادة ويضيف مع غوتة: "كل فكري كان عبارة عن اعترافات مستمرة"، ولكنها كانت ذات نكهة فريدة، عنيفة ومتمردة. كانت تأملا حول الأسوأ المظلم، انتفاضة ميتافيزيقية

ناتجة عن استياء وجودي عميق من الحياة والموت، ومن وضع الإنسان كنوع والإنسان المعاصر على الأخص. "اعترافات ولعنات"، تراكمت وكونت في المحصلة النهائية تصورا خاصا للأمور، جاء في كتب مميزة لا علاقة لها بما عهدناه معروضا على رفوف المكتبات. كتابة متشظية تحمل تأملا حول نزوات صاحبها المتقلبة التي لا تهدأ على حال. يتحدث سيوران عن هذه التقلبات تحت غطاء الحديث عن نيتشه، لنقرأ كيف يرافع عن زميله مرافعا في ذات الحال عن قضيته: "لا شيء أكثر إغضابا من تلك المؤلفات التي تُنَسق فيها الأفكار المبعثرة لعقل حي لم يكن هدفه إنشاء منظومة على الإطلاق. ما نفع إعطاء نوع من الترتيب الشكلي لأفكار نيتشه بدعوى أنها تدور حول نفس الموضوع؟ نيتشه مجموعة من المواقف، فالبحث عن وحدة ما أو أي نسق قصدي لديه هو انتقاص من قيمته. كان أسير مزاجه المتقلب. يضل البحاثة سواء السبيل حينما يريدون إيجاد ثوابت ترفضها فلسفته التي لم تكن سوى تأملات في أهوائه المتقلبة". هكذا يحتج سيوران في 'إغواء الوجود'[1].
لم يكن يتحدث في كثير من "البورتريهات" التي خصصها لغيره من المفكرين سوى عن نفسه بطريقة ملتوية. كثيرا ما كتب سيرته الفلسفية الذاتية وهو يتطرق لسيرة المفكرين الآخرين. جاءت 'تمارين الإعجاب'، الكتاب الوحيد الذي كتبه عن زملائه من الكتاب والفلاسفة عبارة عن "سيرة ذاتية"، لا تفصح عن نفسها، سير ذاتية مُحوّلة. ها هو يأتي على مقاسه تماما ذلك البورتري الذي يحيك مثلا لبول فاليري: "لم يكن مُعلقا ذاتيا على أدبه فحسب وإنما كانت كل مؤلفاته سيرة ذاتية مُقنَّعة تقريبا. كانت استبطانا عالما، يوميات فكرية، ترقيات لتجاربه، مهما

(1) Œuvres, p. 914

كانــت تلك التجارب إلى درجة الحدث الفكري"[1]. ألا يصف نفسه أيــضا حيــنما يحيي في صديقه ميشو"حدة الكينونة" ولا سيما ذلك "المتــصوف غير المتحقق". أُوّل أسلوب كتابته تأويلات شتى وكثيرا ما زاد الطــين بلة تعليقاته الذاتية عما كتب. لقد استعذب كثيرا الحديث عــن رؤيــته للحياة. أجرى أكثر من المائة مقابلة مع الصحافة العالمية، باســتثناء الفرنسية منها التي امتنع من الظهور على صفحاتها وشاشاتها خــوفا مــن أن يتعــرف عليه الناس في حديقة اللوكسمبورغ، مكانه المفضل في باريس. لقد اختار أن يبقى بعيدا عن الصخب والأضواء في زمن أصبح فيه "العيش في الخفاء" فشلا في نظر أغلبية معاصريه. تحدث عــن نظرته للوجود مطولا وبالتدقيق في كثير من المقابلات التي أجراها مــع أصدقائه المثقفين من مختلف اللغات، ولكن هل نعتمد على كل ما وجــد من صيغ موفقة في التعريف بنفسه؟ احتلت تعليقاته على كتبه ورؤيــته مساحة كبيرة في مسيرته الفكرية إلى حد أصبحت فيه جزء لا يتجزأ من عمله الأدبــي.

تفــرض طريقته في الكتابة على قارئه شيئا من الجهد ليتمكن من فك رمز ومعنى عباراته السريعة المكثفة. تتطلب قراءته زادا قرائيا معينا واطلاعــا معقــولا. كــثيرا ما تتعقد مهمة قارئه الهاوي أمام إحالاته المتكــررة لحوادث التاريخ القريبة والبعيدة في أكثر تفاصيلها دقة أحيانا واستدعاءاته المستمرة لأساطين تاريخ الفكرالإنساني في تجلياته المتعددة والمتناقــضة: الــديانات، الفلسفة، التصوف، الرواية، الشعر.. في جملة واحــدة، مثلا، يُعرِّف شكسبير فيغدو أشهر من مشت به من الإنجليز قدمُ بمجرد "موعد بين وردة وفأس". يُعرِّف نفسه مستعملا خيال "الشيخ

---

(1) Exercices d'admiration, Œuvres. p. 1560

الزوبير"[1] حينما يرى في ماكبث "الأخ والصِّنو". عن استراغوفين بطل دويستوفسكي، يقول أنه شديد الإعجاب به بسبب عمقه الرومانسي ومعاناته القاسية من الملل. لو كان مؤمنا لكان مانويا، يعترف في 'كراساته' التي نشرت بعد موته[2]. يستخدم الميثولوجيا حتى عندما يروي يومياته: "أستيقظ كالشيطان أحيانا وأهي يومي جبانا، والعكس في بعض الأحيان"[3]. "من هو الحكيم؟" يتساءل وتأتي الإجابة واضحة سريعة: "شيطان أبله". كمؤرخ للفلسفة يكتب بظرافة: "كان باسكال وعلى الخصوص نيتشه، مُحقّقان في شؤون الأبدية". أما في تعليقه المتشائم عن الطبيعة البشرية، فلا يرى في كل مولود جديد سوى "ريشارد ثالث مقبل". كثيرا ما توارى وراء الأحداث التاريخية للتعبير عن بعض الأراء والمواقف: "أميل إلى الممالك الهالكة، والإمبراطوريات المنهارة... أميل إلى الذين تعبوا من أنفسهم ومن العالم، أولائك الذين يؤمنون بالأمر المحتوم. أتعاطف مع المزقين والمعتوهين، مع عائلات رومانوف وهابسبورغ ومع كل الذين ينتظرون جلادهم، أحمل ودا إلى المهددين والمُتآكلين في كل مكان". تكمن أصالته في بعده عن التخمين النظري والتحليق في أجواء الفكر المجرد.

جاءت فلسفته من حياته اليومية عموما. استلهم مادة تفكيره في الأسئلة الكبرى من الأشياء الصغيرة التي يصادفها كل يوم في الحياة العادية. لا تكاد تنفصل فكرة من أفكاره عن نادرة من النوادر أو حكاية من الحكايا التي عاشها. نعثر على سيوران الحقيقي في 'الكراسات'، كتابه المطبوع بعد وفاته، لذلك أعتبره أهم كتبه لأننا نجد

(1) شكسبير
(2) Les Cahiers 1957-1947, Gallimard, 1997
(3) نفس المصدر. ص. 998.

فـــيه الوجه الأكثر صدقا وتعبيرا عن صاحبه وهي أوراق أُرجح أنه لم يكن ينوي نشرها لما فيها من صراحة ومباشرة وعنف تجريحي. نكتشف في "الكراسات" تلك الورشة التي تولد فيها الأفكار انطلاقا من الفرص الـــتي تمـــنحها الحـــياة الواقعية لسيوران. نرى كيف تنفجر رؤيته من ملاحظـــة أو نادرة ما. ويكون ذلك متوقفا دائما على إحساس اللحظة الـــتي يعيشها. "في يوم من الأيام كنت قاصدا متحف اللوفر، يحكي لنا سيوران، كان لزاما علي أن أعبر نهر السين. كان عدد السيارات مذهلا كمـــا هو الحال في باريس دائما. في لحظة عدم انتباه لإشارات المرور، وجدت نفسي فجأة محاصرا في وسط الطريق تحيطني السيارات من كل جانـــب... حينـــئذ جـــاءني شـــعور كالإشراق: مرحبا أيها الإفلاس والهـــلاك!. كـــيف يمكـــن أن تصل الأمور إلى هذا الحد؟ لماذا وصل الإنـــسان إلى هذه الفظاعة؟ كفى. لا داعي للأدلة والبراهين... قضي الأمـــر وانتهى كل شيء". في تطرقه لــ "الزمن" مثلا، لا يقوم بخطبة فلـــسفية عـــصماء حول الموضوع، وإنما يصف ما يحدث له شخصيا: "أمكـــث في الفراش أكثر من نصف اليوم. ليس لي سبيلا للإندماج في الـــزمن". وها هو يصيغ لنا من اللغة المتداولة أجمل الصيغ: "كنت، أنا كائن، سأكون. ليس تلك مسألة وجود، وإنما هي مسألة نحو، لا أكثر ولا أقل". لا تكون زيارته لطبيب الأسنان عادية دائما فكثيرا ما يستنتج منها درسا فلسفيا: "في الوقت الذي كان فيه الطبيب يهشم فكي، كان يـــدور في خلدي أن الزمن هو الموضوع الوحيد الذي يجب أن أتأمل فـــيه، فبسببه أقبع الآن على هذا الكرسي المشؤوم، وبسببه يتهشم كل شـــيء، بمـــا فيه ما تبقى لي من أضراس"[1]. ويستمر ساخرا من الأمر

(1) Aveux et Anathèmes, Œuvres, p. 1648

قائلا كلمة تعد من أجمل ما قيل في اللغة الفرنسية: "أفقد أسناني. ها أنا ذا أموت بالتجزئة". أما في 'موجز العفن' أو 'رسالة في التحلل'، فيكتب أن "الأمس واليوم وغدا: مقولات مخصصة للخدم"[1]. يخبرنا في الكتاب السابق ذاته أن "جوابا سريعا من لير أو خطبة من هاملت تعلمنا أكثر من ألف تحليل ابسيكولوجي" في معرفة خبايا وصراعات الإنسان الداخلية. "أنا شبيه بالدمية المتحركة المكسورة التي سقطت عيناها إلى الداخل، هذه العبارة التي نطق بها مريض عقلي، يقول، هي أعمق من كل الأعمال التي وُضعت في الإستقراء الباطني".

حينما يريد التحدث عن البوذية، يربطها بحياة كل إنسان: "تكفي زيارة لمستشفى، وفي غضون دقائق معدودات، نصبح بوذيين إذا لم نكن كذلك، ويفترض الفيلسوف أن نعود إلى سالف عهدنا إن كنا بوذيين وهجرنا البوذية يوما"[2]. من هو بوذا الشوارع؟ يسأل في كتابه 'غسق الأفكار' وتأتي الإجابة ممتعة: "هو الوعي بالعدم مصحوبا بحب الحياة"[3]. أمَاتني ضحكا حينما قرأته يقول ذات عام أنه يوم علم بأنه فانٍ وأنه سيلقى حتفه لا محالة، ترك مقاعد الدراسة حالا ليعلم كل العالم بذلك. دون أن أسقط في تقريبه من فلسفة "النيوآج" أو فكر العصر الجديد المتمركزة حول الخلاص الذاتي، السعادة فورا، الفرد.. أقول أن الفلسفة في نظره هي طريقة حياة وسبيل خلاص فردي وليست ابتداع مقولات وتكوين تصورات كما كان يرى الشيخ جيل دولوز. ليس للمصطلح أية أهمية، وحدها الحياة جديرة بالإهتمام. لا داعي للرقص المصطلحي

---

(1) Œuvres, p. 658

(2) Aveux et anathèmes, Œuvres, p. 1651

(3) Le crépuscule des pensées, Œuvres, p. 391

والثرثرة المتكلفة، فحتى الفيلسوف كانط ذاته، رائد اللغة الفلسفية الإصطلاحية يتفق نظريا مع سيوران في هذا الأمر، حينما يكتب في إحـــدى رسائله: "ينبغي على كل كتاب في الفلسفة أن يكون قابلا للتداول العام كيلا يكون إخفاءً محتملا لتفاهات تحت غطاء الحذلقة"(1). ولكن متى كان الفعل قولا؟ هل يمكن أن ننقل فكر كانط إلى اللغة البـــشرية العادية؟ في 'اعترافاته ولعناته' يأخذ سيوران على صاحب 'نقـــد ملكـــة الحكم' كونه "انتظر حتى بلغ من العمر عتيا ليدرك جوانب الوجود القاتمة. هناك من هم أكثر حظا منه، توصلوا إلى ما وصل إليه في شيخوخته، قبل أن يبدأوا التفلسف قط"(2).

لـــئن أخـــذ صديقنا سيوران من الحياة إجازة دائمة كي يتجنب الـــسقوط في عـــبودية الوجـــود، كما يقول، وليعيش دون وظائف اجتماعـــية مُبلِهة، ولئن كان يؤمن إيمانا فلسفيا راسخا أنه من الطبيعي أن نجـــد أن لا شـــيء مجدٍ في الوجود، فإنه بقي يصغي جيدا إلى الحياة وإلى نفسه على الدوام، ويعبر عن ذلك أجمل تعبير. وربما هو ما يجعلني أقـــول دون أدنى خـــوف من الزلل أن الفلسفة انتقلت معه من مرحلة المقـــولات إلى مـــرحلة الإنفعالات. ألا تبني كل فلسفة حقيقية على "الأنـــا"؟ لا يكتب كتابا أو يلقي خطابا ليعبر عن تحفظه حول التحليل النفـــسي الفرويدي مثلا وإنما يقص علينا ما كان يحدث له في طفولته الصغرى: "إذا اتسم موقفي من فرويد بالريبة دائما فأبـــي هو المسؤول الأول عـــن ذلك: كان يقص أحلامه على أمي. وبهذا كان يعكر صفو كل صباحاتي"(3).

(1) Kant, Lettre à Gave, le07 août 1783

(2) Œuvres, p. 1647

(3) نفس المصدر. ص. 1649.

لا فائدة ترجى من كتاب لا يشوش كل شيء ولا يشكك بكل أمر. كان السيد سيوران من الشكاك الراديكاليين، لكنه لم يكن يظهر ذلك في صخب اصطلاحي مقعّر: "الآراء نعم. أما القناعات فلا، وتلك ركيـــزة كل عزة فكرية"، و"يُعرف المفكر الغشاش من حصيلة الأفكار الدقـــيقة التي يدافع عنها". ويفسر الأمر قائلا في موضع آخر: "وحده يملـــك قـــناعات من لم يتعمق في شيء". تلك طريقته في الحديث عن شـــكه الـــشامل. أما حينما يتعرض للقلق الوجودي الذي يضرب بني نـــوعه وحينما يطرح مسألة حاجاتهم الروحية، فإنه يستعمل كلمات رجـــل الـــشارع: "يغدو الإنسان المتعب من نفسه سائرا ومتكلما في النوم، يرنو إلى الضياع في صحارى الله"[1]. يصف التمزق البشري في مقطـــع شـــعري جميل في 'دموع وقديسون': "فيما تنتحب الذاكرة، يقـــول، تـــئن الجنة في قاع الوعي. وهكذا نخلق معنى ميتافيزيقي حالم للدمـــوع ونـــتوهم بأن الحياة مجرد تعاقب للحسرة والندم". ينظر إلى االكآبة على أنها الزمن وقد تحول إلى انفعالية، وهو ما يذّكر بجيرار دو نيرفال القائل لطبيبه أنها (الكآبة) ذلك المرض الذي يجعل المرء ينظر إلى الأشـــياء كمـــا هي. حاولت اقتطاف باقة من الشذرات للحديث عن طـــريقة ســـيوران في التفكير ولكي أشير إلى الصعوبة التي تعترض من يحاول نمذجة فكره. ترجمت ما رأيته دالا على أسلوبه المجازي والبلاغي. لنتأمل بعض كلمات لسيوران في قمة لياقته الفلسفية والشعرية: "شعلة تعـــبر الـــدم. تقفز إلى الضفة الأخرى، متفادية الموت"، "الحياة نقصان أبدية ابتداءً من الموت"، "التفردن أزمة السرمدية"... كيف يمكن تفسير وتأويل كلام يعج بالرؤى الشعرية؟ من يغامر في تفسير ما لا يفسر وما

(1) Le crépuscule des pensées, Œuvres, p. 448

لا يفهم؟ أتذكر هنا بكثير من الحنين رد أستاذي في جامعة الجزائر على إلحــاح زمـيل وصديق فيه كثير من الخبث الجميل طالبا شرح فكرة الفيلسوف هيجل حول تجسد العقل في التاريخ. بعد محاولات متكررة لــشرح فكرة هيجل وأمام تمادي الصديق في عدم الفهم، قال الأستاذ طــيب الذكــر في شــبه غضب: "أتريد يا ابني أن أشرح لك أمرا أنا شخصيا لا أفقه منه شيئا!"

تــصدق كلمة الأستاذ أيما صدق في حالة سيوران إذ كيف يمكن ادعاء فهم أفكار مغلفة في أثواب الشعرالأنيقة؟ من يغامر في فن تفسير مــا لا يفهم؟ ألم يكتب صاحبنا في آخر صفحات كتابه الأخير: "يفنى كــل مــا هو قابل للتصنيف ولا يبقى إلا ما كان حمّال أوجه". وفي 'تمــارين الإعجاب'، يذهب إلى القول أن "مأساة الكاتب الحقيقية هي حيــنما يــتم فهمه"[1]. أما القاعدة الذهبية لديه فهي "ترك صورة غير مكتملة عن الذات". يجد القاريء نفسه وجها لوجه أمام أفكار سريعة مكــثفة كأنهــا اللمــع أو أقوال مأثورة أو حكم ويخال له أن كاتبها كالمختنق بالنثر يطلب من الشعر نجدة.

مــساويء أن يكــون الإنــسان فيلسوفا! لم يعش سيوران من الفلــسفة بــل من أجل الفلسفة. "أنت تأخذ أجرا مقابل أن تكون لا شخــصيا، تقــبض مقابــل الحياد"، هكذا خاطب سيوران ذات يوم فيلسوف فرنسي كان متربعا على كرسي الأستاذية في إحدى الجامعات الفرنسية الشهيرة. ينبغي أن تكون الفلسفة قضية معاشة ذاتيا، أن تكون تجــربة شخــصية أو لا تكون! أهم شيء في نظر سيوران هو العلاقة المباشــرة مــع الحياة، الإحتكاك بواقع الناس العاديين. تتعايش في كتبه

(1) Valery face à ses idoles. Œuvres, p. 1560

وتـــتداخل أشـــياء كثيرة: استشهادات دامغة، تعاليق حول الأحداث التاريخية وكثير من البوح بأسرار حياته الخاصة...

يكمن عيب الفلسفة وبؤسها في زمننا في انفصال متعاطيها عنها. أصبح المشتغل بها مستقلا عن موضوع دراسته كباقي القوم، مثله مثل الجـــراح والـــصيدلي. أصبحت الفلسفة سهلة، لا تستدعي أية مغامرة شخـــصية ولا ينجر عنها أية تبعات. ألم يعرفها سبونفييل، أحد أشهر فلاســـفة فرنـــسا اليوم، على أنها "عملية استدلالية، موضوعها الحياة ووســـيلتها العقل وهدفها السعادة"؟ لو قرأ سيوران هذا التعريف لمَات ضـــحكا. فلا الحياة موضوع الفلسفة ولا العقل وسيلتها ولا السعادة مبـــتغاها. تثرثر الفلسفة حسبه عبر مصطلحاتها قبل أن تتناول المسائل، متوهمة أنها تقول شيئا حول الواقع، بيد أن تكاثر الكلمات التقنية ليس مـــن الضرورة في شيء. كان هيدغر عبقرية لغوية لا أكثر ولا أقل في نظر سيوران، تحولت الفلسفة معه إلى جعجعة بلا طحين. استعمل لغة معقـــدة جدا لقول أشياء بسيطة للغاية. فلم يبهر سوى بخطابه اللغوي. لـــو تـــرجمنا نصوصه الفلسفية إلى اللغة العادية لَبدت لنا فارغة من أي معنى، يضيف مَن يؤكد أن المسائل الحقيقية تفلت من قبضة الفلاسفة. لم يـــنحت نيتشه مصطلحات ومع ذلك لم ينقص هذا الأمر من أهمية وعمـــق مـــا خلفه من فكر. "إن ابتداع الكلمات الجديدة لهو الدليل الدامـــغ على عقم الأفكار"، تبدو ملاحظة مادام دو ستال، أكثر صدقا اليوم مما كانت عليه في بداية القرن التاسع عشر، يقول سيوران(1). بعد هـــذه المحاكمـــة للفلسفة، أصدر حكمه النهائي حول توجهاتها الحالية وعلى الأخص نـــزعتها اللفظوية. أخطر ما يهدد الفلسفة الجامعية هو

---

(1) Aveux et anathèmes, Œuvres, p. 1646

غرقها في طوفان المصطلحات التقنية، وهو ما يزيد في بعدها عن حقيقة الأشياء. هل يبالغ أفضل كاتب شذرات بعد نيتشه، حينما يقول: "ما جـــدوى معاشرة افلاطون إذا كان أي ساكسوفون قادرا هو أيضا أن ينقلـــنا إلى عـــوالم أخـــرى؟" ألم يقص سقراط نفسه على أصدقائه حلما متكــررا، يأمـــره فيه صوت قائلا: "اعزف موسيقى، فما الفلسفة إلا موســـيقى سامية"[1]. لا يمكن أن تكون مجرد تقنية عقلية، تفكير حول المفاهيم. "كان سارتر نابليون فكر صغير. عن طريق مفاهيمه اعتقد أنه كان يتحكم في مسيرة العالم ولكن لم يكن العالم يوليه أدنى اهتمام. لقد أشفقت دائما عليه لسبب واحد على الأقل هوذاك الفشل الذريع الذي منيت به أحلامه".

عـــاش سيوران بلا قضية نضالية ولكنني أتخيله مبتهجا بما قام به ثلاثة طلاب فلسفة، هؤلاء الذين حطموا نظام البصمات الذي يُراقب دخـــول التلاميذ إلى مطعم ثانويتهم. لقد نهضوا ضد تشييء الإنسان، قالـــوا في المحكمة. فهل هناك من التعريفات أبلغ مما فعلوا. لا يمكن أن تكـــون الفلـــسفة شيئا آخر غير انتفاضة راديكالية ضد كل من يريد ممارسة سلطة ما علينا، ضد أن نكون مراقبين، مُفتَشين، مأمورين، كما تقول عبارة برودون الخالدة.

---

(1) Phédon

اضحكوا ولكن ابكوا
في نفس الوقت... أيضا

"ينبغـــي أن نضحك قبل أن نكون سعداء،
خوفا من أن نموت دون أن نضحك"

جون دو لابيي

في المحـــصلة إن كان هناك تحصيلا ما حينما نلج متاهة سيوران، أجـــد نفـــسي أمام رغبة ملحة في القول أن كل قراءة مكتوبة لأعمال ســـيوران مـــا هي إلا تشكيلا لـــ "سيوران ما". لا أزعم وجود عدة "ســـيورانات"، أريـــد القول أن هناك سيوران واحد، يستعصي على التصنيف. ليس من السهولة إدراج نظرته للحياة وللعالم ضمن منظومة مـــن المنظومات الفكرية الرئيسية المعروضة في سوق الفلسفة. مع قراءة كل شذرة من شذراته، يتهافت كل تصنيف وتتهاوى كل فكرة مبتذلة حـــوله، فكثيرا ما تكون الشذرة استجابة لظروف اللحظة المعاشة. إنه يكـــتب للضرورة فليس الكتابة ترفا لتلبية متعة فكرية محضة بل هي رد فعـــل حيوي خفف من ثقل الحياة ورتابة الزمن وسياط السهاد. "لو لم أُسوِّد ورقا لكنت قتلت نفسي منذ زمان"، "الكتابة تحايل على الحياة" و"مطفأة للغضب" و"كل كتاب هو انتحار مؤجل". هذا ما كان يحب أن يردد دائما. كتب ليلعن الدنيا وليهجو نفسه كالحُطيئة ويعترف في

النهاية أنه قد تحمل الحياة أحسن. لقد قذفت بالأشياء - المكتوبة - إلى الخارج، تَنخّمتُ، كان يقول.

يكاد باتريس بولون أن يقترب من تشخيص حالة سيوران حينما يكتب أنه يجب ذكر واستحضار كل ما كتبه سيوران تقريبا ليتسنى لنا تقديم نظرة عن تلك الرؤية المزعزعة التي تؤكد في آن معا على ضرورة الصفاء الذهني الكامل، الوهم المعتم، البحث الصوفي عن الحكمة، اللجوء البدائي إلى الغرائز، الوثبة الروحية، التعلق بالمادية، والريبة من كل تغيير[1].لئن تنبه باتريس بولون إلى صعوبة الإحاطة بفكر سيوران فإنه يبقى مثل أغلب دارسي فكر سيوران سجين تلك القراءات المفرطة في عقلانيتها، التي تبتغي وضع النصوص "في أزمة" وهو ما يسمى "نقدا" في اللغة الفلسفية عادة.

هل من الممكن صياغة نظرة متماسكة للكاوس[2]؟ للعماء، للسديم، هل كان سيوران محتاجا أو مهتما بإقناع أحد؟ هو الذي كان متيقنا بأن العالم لا ينصاع أبدا لأحلام الفلاسفة! هل يحتاج من يضع تشخيصا إلى أن يكون متناسق الفكر متماسك المذهب؟ هل تماسك الأفكار الصارم ضرورة؟

لا يصيغ سيوران إشكاليات لفظية طويلة عريضة كما اعتاد أن يفعل متعاطو الفلسفة. يتساءل أحيانا، يؤكد في الغالب، يطلق أفكارا، تنبع من أعماقه حينا وتكون حينا آخر رد فعل سريع حول ما يشاهد ويلاحظ ويعايش في حياته اليومية وتكون في أغلب الأحيان تعليقا عما يقرأ أو يسمع هنا أو هناك. يسجل ما يدور بنفسه، يلاحظ ما يحيط

---

(1) Magazine littéraire, décembre 1994

(2) Le chaos

بـــه، يكفـــر، يغتاظ، يسخط... ويعبر عن ذلك كله في جمل سريعة مقتـــضبة. تبدو شذرات سيوران الفكرية، لأول وهلة، كأنها اعترافات وملاحظـــات ومَحاضر، متباعدة ومنفصلة عن بعضها البعض، ولكن يجمـــع بين كل المواقف الجزئية الصغيرة خيط يجعلها تشكل في النهاية موقفا من الحياة، نظرة عن العالم، تشخيصا للوضع البشري.

مـــن يقـــرأ مـــا كتب يجد ما تركه عبارة عن تشخيص لسقوط وانحطـــاط الإنـــسان عمـــوما وإنـــسان الحضارة الصناعية على وجه الخصوص. كان الإنسان هو اهتمامه الفلسفي الأول والأخير. لم ينقطع عـــن مـــساءلة كـــل من له سلطة على بني آدم: الدولة، الله، التاريخ، التحليل النفسي، الطبيعة، التقنية.. كانت نظرته المتحررة للعالم تسجل قـــرب انهـــيار الأشياء كلها. يعتبر كتابه 'التاريخ واليوتوبيا' من أفصح أعمالـــه نقدا للحداثة والحضارة الحالية إذ أنه قدم في كتبه الرومانية أو الفرنسية الأخرى تصورا ميتافيزيقيا للوجود. هنا في 'التاريخ واليوتوبيا'، يـــبدو كأنـــه يحـــاول إيجاد أسس تاريخية ملموسة يوقف عليها رؤيته الفلسفية. نعثر في ثنايا كل أعماله على نقد وفير لأسس الحضارة الغربية وإن كـــان نقـــدا سريعا متفرقا هنا وهناك فإنه من أعمق ما كتب من ملاحظات حولها، ابتداءً من عقم الفلسفة في الغرب، مرورا بمحدودية العلـــوم الإنـــسانية وأزمة التمثيل البرلماني ووصولا إلى أسلوب احتلال المكان، وفن العمارة.. نقرأ في كتابه 'في لا جدوى الثورات' أن الغرب "عفونة ذات رائحة طيبة، جيفة معطرّة".

لا تعـــيد سهام سيوران النظر في تلك الصورة المؤمثلة لما يسمى "حـــضارة غربية" فحسب بل تعتبر مجتمعة أعنف نقد وُجّه للحداثة في عـــصر الإيديولوجيات وهو أمر كثيرا ما أدى إلى إدراجه ظلما ضمن قائمـــة المفكرين الرجعيين. تكمن أهمية نقد سيوران للثقافة الغربية في

جذريته وفي تحرره من سطوة الإيديولوجيات و'الموضات' الفكرية التي اجـــتاحت القـــرن العـــشرين. لنقرأ ما كتبه سنة 1960 في عزّ البَيات الشتوي الثقافي الذي كان يرقد فيه كثير من المفكرين: "بغية تجريد الله من كل مصداقية، ألّهت الماركسية التاريخ، فلم تفعل سوى جعله غريبا وبالتالي أكثر إلحاحا. نستطيع أن نقتل كل شيء في الإنسان، يقول، إلا حاجـــته للمطلق التي تبقى حية بعد تهديم المعابد وحتى بعد اضمحلال الـــدين. وبما أن الدين هو عمق الشعب الروسي فإنه سيتجاوز الوضع حتما"[1]. لم تُكذّب الوقائع نبوءة عالم نفس الثقافة. لقد رأى مبكرا أن الناس يصغرون تحت عظمة كل ايديولوجية مزعومة.

ظل هاجسه المركزي واحدا منذ كتابه الأول وإلى آخرلقاء جمعه مـــع الإعـــلام: انحطـــاط الحضارة، ضياع قيمها الأساسية وحقائقها كـــ "الزمن" و"الموت" "الروح".. تلك المقولات الكبرى التي يتأمل فـــيها بطريقته الخاصة والفريدة. "كلما كنا بدائيين كلما كنا أقرب إلى الحكمة الأولى التي فقدها المتحضرون". "البورجوازي الغربـــي معتوه، لايفكر سوى في المال". أمام طوفان السلع الذي يغرق العالم الغربـــي يبـــتهج سيوران بترديد قول سقراط الشهير: "ما أسعدني أن أرى كثرة الأشياء التي لا أحتاج إليها". غني بلا شيء وكل شيء غني به، لا يملك شيئا ولا شيء يملكه، يقول المتصوفة. لقد عرف كيف يدير ظهره لعُته المجـــتمع المعاصر الذي يخلق لنا احتياجات تافهة ويبعدنا عن التفكير في جوهـــر الأشياء. من لم يدر ظهره للعالم الحالي يفقد كل شرفه، يكتب نيكولا غوميز دافيلا في كتابه الشذري 'بؤس الديمقراطية'. أما الكاتب الفـــرنكوفوني المصري ألبير قصيري فيقول أن "الحياة الجميلة هي تلك

---

(1) Histoire et utopie, Oeuvres, p. 996

التي نعيش فيها دون أن نملك شيئا، أن نحيا بعيدين عما يصنع سعادة الحمقى والمعتوهين. الملكية وحدها هي التي تجعلنا عبيدا. أحبذ ألا يذهب من يقرأ أحد كتبي إلى عمله في اليوم الموالي، يضيف مصري باريس إذ أنك حين لا تعمل شيئا فإنك تقوم بعمل داخلي كبير". لا يأتي شقاء الناس سوى من شيء واحد، يقول لنا الفيلسوف باسكال، هو أنهم لا يعرفون أن يبقوا في راحة داخل حجرة. ظل سيوران حاملا نفحة من الحنين إلى قريته، ففي رسالة بعثها من باريس إلى أخيه أُريل في رومانيا كتب سيوران سنة 1972: "أي راعٍ عندنا هناك هو فيلسوف أكثر من أي مثقف هنا". في نفس الرسالة يندم على كونه لم يكن راعيا: "أعتقد أنه كان من الأحسن لي أن أمكث في قريتي وكان من الأفضل لي أن أرعى قطيعا أيضا. لو فعلت ذلك لكنت فهمت الأشياء الجوهرية أكثر من الآن ولكنت اليوم أكثر قربا من الحقيقة"[1].

كثيرا ما تساءل سيوران عن جدوى مغادرته لقريته البلقانية النائية. بعد حياة زار خلالها من البلدان كثيرا وقرأ من الكتب تلالا، كما يقول، وجد في النهاية أن الحق كان مع الفلاح الروماني، ذلك الذي لايؤمن بشيء، والمقتنع بأن الإنسان قد ضاع، سحقه التاريخ وانقضى الأمر.. الإنسان ضحية تاريخه، تلك هي قناعة سيوران وفلسفة التاريخ التي يؤمن بها أيما إيمان مثل بقية الفلاحين البلقان. "لم تنفعني دراستي العليا ولا تكويني الفلسفي والأدبي في شيء". هكذا يعترف ذات يوم.

لم يكن الضجر بالنسبة إليه بعدا من أبعاد الوجود وإنما كان البعد الوحيد. عاشه في كل مكان ومنذ الصغر. "لو كنت أعلم ما كان

(1) Gabriel Liiceanu, Itinéraire d'une vie, éd. Michalon, 1995, p. 19

سيصير عليه حالك لكنت قد أجهضتك وارتحت"، قالت له أمه يوما، بعـــد مللها من ترديده أمامها وهو في سن مبكرة: "لم أعد أحتمل هذه الحياة".

طلـــبت المستقر بكل أرض، يقول الحلاج قديما، فلم أرني بأرض مـــستقرا. لا داعي ولا جدوى من الجري وراء المستحيل، فأينما اتجه صـــاحب الـــضجر فسيجد نفسه لا محالة غريبا وحيدا، يصعب عليه الإنـــتماء إلى بلد. كان يبدو العالم لسيوران منافقا ومهنيا فوق اللزوم وقـــد عبر عن ذلك بمرارة شديدة أحيانا وبروح مرحة خفيفة الظل في أغلـــب الأحيان. كان كأنه يريد الهروب من نوعه. "يقولون "إنه ليس من هذا العالم"، وتلك هي الطريقة الوحيدة التي تؤثر فيّ حينما يُتحدث بها عني"[1].

ينتمـــي إلى عائلـــة هؤلاء الذين يشعرون بالغربة في كل مكان، إلى عائلـــة المتغـــربين في الوجـــود، تلاحظ ماريانا سورا على حق في كتابها 'سيوران، قديما وحديثا'[2]. ابتعد عن المظاهر واقترب من أناه، تذوّق متعة عدم الفعل واجتناب المشاركة في حركة الجنون الجماعي، عاف من الحياة مظاهـــرها.. ذلـــك ربما كان أحسن دروسه التي تركها.. "لا أرى إلا ما يفرح ولكنني لست مسرورة (...) أنا سعيدة جدا وأموت ضجرا"، يقول فولـــتير علـــى لسان جولي في "إلويز الجديدة". حياتي، يظن الجميع أنهم يعرفونها، يقول الشاعر الفرنسي أراغون، وذلك يميتني من الضحك أحياناً. يمكن أن يقول سيوران نفس الشيء وقد ردد في عديد المناسبات أنه عمل كل ما في وسعه لخلط الأوراق وزرع سوء الفهم بين دارسيه.

---

(1) Les Cahiers

(2) Mariana Sora, Cioran, jadis et naguère, éd. de l'Herne, 1988, p. 16

لم أقتـــرح هذه القراءة لتوسيع سوء الفهم حوله ولا لتعميق عدم معرفته وإنما هي قراءة ذاتية لا تخفي تعاطفها. في هذه النـــزهة الفلسفية الـــسريعة في فكر سيوران، تركت شذراته وتعليقاته تتنادى واحدة تلو الأخـــرى، تتناقض بينها وتتصادم، ليتسنى الإنصات إلى كلام سيوران الأرخبيلي بتعبير روني شار. كان الهدف اقترابا مباشرا وسريعا. لم أكن أرمـــي إلى تكـــوين صورة جامعة مانعة عن فكر الرجل بقدر ما كان المبتغـــى مـــشاركة القاريء متعة الحوار مع إحدى الفلسفات الأكثر سوداوية في القرن المنصرم والأكثر دعابة في آن. من هو أكثر أهلية من سيوران ليرعى تفاؤلنا، وليجعلنا نشعر بجذل الوجود أمام كارثة الولادة وأخـــواهما؟ قـــراءة سيوران تجنبنا على الأقل الصراخ: "ليعش الموت!" "دون أن يكون فيلسوفا محترفا أو شاعرا، كان يفكر بشاعرية"، تقول حنا آرنت عن ولتر بن يامين، وكذلك حال سيوران.

يـــوجد نـــوعان مـــن البـــشر: المتفائلون فلسفيا والحزانى في الحياة والمتـــشائمون فلـــسفيا والجذلى في الحياة. ينتمي سيوران إلى الفئة الثانية. أعتـــبره متـــشائما محترفا. على النقيض من نيتشه وشوبنهاور ليس لحياته الفعلـــية علاقة بأفكاره المتشائمة، فعلى الرغم من ألم الكينونة وحسرة الوجـــود، لم ينغلق على ذاته أبدا. خادعة تلك الصورة الشهيرة التي يبدو فيها مكفهر القسمات، في أعلى درجات الكآبة والتعب والتي تكرر نشرها في الـــصحف والمجلات. لم يكن فظا صعب المعاشرة كدوستوفيسكي و لم تكـــن له نظرات نيتشه المرعبة بل كان بشوشا مرحا ودودا. يقول عارفوه أنـــه كـــان نـــديما خفيف الظل لا تفارق الإبتسامة محياه أبدا. "يا حزني الـــسعيد" تقـــول أغنية فيروزية. لا أحد يستطيع مقاومة قهقهة في حضرة تلك الروح المازحة، ذلك الحزن السعيد. كان يردد بلكنته الرومانية العذبة وهو في كامل حيويته: "كل شيء من سوء إلى أسوء، لا رجاء لا رجاء!"

تغدو السخرية خلاصا حينما يضيع كل شيء في حياتنا وتذهب كل الأماني أدراج الرياح. "عن طريق الضحك تقول فرانسواز داستور، نُعبر عن تجربة كوننا نعيش من أجل لا شيء، نعيش بدون سبب. يخلصنا الضحك من ضيق مصيرنا ويفتح أمامنا ما يمكن تسميته 'مجانية الوجود'"[(1)]. عندما نفقد بواعث وجودنا وآخر عذر للبقاء أحياء، لا تبقى لنا سوى السخرية من أنفسنا. يملك كل شيء من ما زال يحتفظ بمخزون ضحك في زمن امتعاض الوجوه وعبوس الأرواح. حينما نحتفظ بالقدرة على الضحك مما يحدث لنا، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئا ضدنا، يقول ألبير قصيري، لأن من لا يستطيع السخرية من نفسه ومن حياته الرديئة لا يمكن أن يكون آدميا أصيلا"[(2)]. هل صحيح أنه حين نفقد مبررات العيش، كما يقول لنا سبينوزا، لا يبقى أمامنا سوى دوافع الموت؟ ليس في كل الأحوال على كل حال. أحيانا ستجتمع لنا كل دواعي الضحك. "تعال يا صاح، خذ الكأس واترك الزابور لداوود ولمحمد امبراطوريته. الأمس فات، والغد لم يأت بعد. عش اليوم فرحا. فلامعنى للحياة سوى الضحك!". يصادق سيوران، دون شك، على هذا المقطع من رباعيات الخيام. أن نكتب أو نضحك، تلك ربما هي أمثل طريقة كيلا نندم على ولادتنا، كيلا نجد هذه الحياة مملة طويلة ولكي نقف صامدين أمام فضيحة الحياة. "ربما لا سعادة خارج الكتابة. تبحث الحياة بعد فوات الأوان على تحقيق الإنسجام مع نفسها عن طريق أجمل وأجزل العبارات"[(3)]. هل يمكن أن تواجه الجملة الأنيقة والسخرية الأدبية السوداء تفاهة العالم؟ هل يمكن أن يكون الضحك

---

(1) Nouvel Observateur, H. s., avril-mai 2006.

(2) نفس المرجع.

(3) Pascal Bruckner, l'euphorie perpétuelle, Grasset, 2000, p. 103

خلاصنا؟ الشيء الأكيد هو أن الملل لا يتسرب إلينا في حضرة أساتذة التشاؤم والتطيّر. الأجمل أنهم يعلموننا أحيانا كيف نضجر بمرح.

في مقابلـــة أجــرتها جريدة البايس الإسبانية مع سيوران، يلخص فـــرناندو سافاتار الظاهرة جيدا في سؤاله - الملاحظة: "إلى جانب ما يمكن نعته تشاؤما أسود في كل كتبكم، نعثر على مرح غريب، بهجة لا يمكـــن تفـــسيرها، ولكنها مسلية بل منعشة؟"[(1)]. يعود سبب ذلك في رأيي إلى أن رحلة تفكيره الطويلة، على واقعيتها وقسوتها وانسلاخاتها في بعـــض المواضع فإنها لم تكن في عمقها ملفوفة بالسواد. مع سيوران نجـــد مـــتعة نادرة وهي تلك التي نتمتع فيها بأفكار لا نتفق معها على الإطلاق.

يـــرى توماس مان أن كل كتاب جيد ضد الحياة هو حثٌّ على العـــيش. يمكـــن أن نضيف أن كل كتابة ضد الحياة قمينة بأن تصبح تسييرا مسالما للعبث. إذا كان ألبير كامو يقول بأن مقابر عنابة الجميلة تعطي شهية للموت، أقول أن قراءة سيوران تعطي شهية للحياة إذ تخلق فينا كتبه رغبة كبيرة في البقاء على قيد الحياة لنتفرج عليها، بعيدين عن أهـــوالها وجـــنونها. يقول: "في التخلص من الحياة حرمان من سعادة السخرية منها. هذا هو الرد الوحيد على من يخبرك بأنه يريد الإنتحار". لـــئن كانت مؤلفاته تراجيدية فإنها لم تخل من الدعابة بل نجد فيها من العـــزاء ما لا نجد في غيرها. شر البلية ما يضحك، يقول العرب ويقول ســـامويل بيكت في "نصوص بلا جدوى" أن "لا شيء مضحك مثل الـــشقاء". قرأت حكايات كثيرة عن أناس كانوا على شفا حفرة من الإنتحار ثم غيروا رأيهم بعد قراءة سيوران وعن أناس كانت لهم قراءة

---

(1) Entretiens, p. 21

سـيوران خـير عون في تجاوز محنهم. "لي صديق بلغ العقد الثامن من العمر، قرّر أن يضع حدّا لحياته في الأيام القادمة. ما رأيك؟ سألني كأنه يـبحث عن موافقتي. قلت له بعد برهة من الصمت: يمكن أن تكون علـى حق. ولكن إذا ما زلت تشعر برغبة في الضحك، تريّث قليلا، أجِّل مشروعك. لقد أعانني الضحك على تحقيق أعظم إنجاز في حياتي ألا وهـو بقائي على قيد الحياة". أعادت قراءة 'قياس المرارة' الأمل إلى صـديقته اللبنانية وهي تعيش سجينة القصف والدمار في بيروت، كما ردع نفس المصنف رغبة الإنتحار لدى معجبة من المعجبات اليابانيات. لنـستأنس لآخر مرة بعبارة من عبارات المتشائم الضحوك: "السخرية هـي الإنتصارالحقيقي والوحيد على الحياة والموت". اقتحمت الفكاهة قلعـة الفلسفة عن طريق أستاذ من أساتذة المرارة. وهكذا ترى النور، لأول مـرة، فلـسفة تسمح بالتفكه وخفة الروح دون أن تفقد قوتها الدرامية ودون أن تكف عن مساءلة الوضع الإنساني لحظة واحدة.

زنزانة الوجود[1]

كل شعب، في مرحلة من مراحل تطوره، يذهب به الظن إلى أنه شعب مختار. عندئذ يعطي أفضل وأسوأ ما لديه.

* * *

في الفن كما في كل شيء، يكون الشارح عادة نبيها وفطنا أكثر من النص المشروح. وهوالأمر الذي يمتاز به القاتل على الضحية.

* * *

في كل إنسان يرقد نبـــي، وحينما يستيقظ يزداد الشر قليلا في العالم.

* * *

ترددنا علامة على نـــزاهتنا. أما يقيننا فلا يدل إلا على دَجلنا.

* * *

كـــل واحد يجر وراءه مقبرة أصدقاء أو أعداء فلا يوجد إنسان لم يتمن موت آخر، ولو في اللاشعور.

* * *

داخل كل رغبة: يتشاجر راهب وجزار.

* * *

(1) مختارات من ترجمة الكاتب.

قال لي أحد المرضى: "ما جدوى آلامي؟ لست شاعرا حتى أستثمرها أو أفتخر بها".

* * *

كل شيء غير متوقع وغير طبيعي عند رامبو إلا 'صمته'. لقد ابتدأ من النهاية، وصل إلى حدود قصوى دفعة واحدة ما كان بإمكانه أن يتجاوزها لو لم يتنكر لإبداعه السابق. سكت وحسنا فعل. لو أنه عاش ثمانين سنة لكان انتهى به الأمر إلى التعليق على شعره، على انفجاراته السابقة، ثم الشرح وشرح الشرح إلى ما لا نهاية. وعندئذ كان سيرتكب أكبر جريمة في التاريخ في حق الشعر.

* * *

المريض ميتافيزيقي رغم أنفه. لأن المرض منفذ لا إرادي إلى ذواتنا. يجبرنا على التوغل في أعماقنا.

* * *

ثرثرة، هي، كل مناقشة مع شخص لم يعرف الألم.

* * *

من الصباح وإلى المساء لا نصنع إلا الماضي.

* * *

لَيتهم يدركون السعادة التي يدينون لي بها أولائك الأبناء الذين لم أرغب في مجيئهم إلى هذا العالم.

* * *

إفراطان مدمران: الرطانة الفلسفية واللغة العامية. الأولى في تكلّفها والثانية في حيويتها.

* * *

لو كنت أملك شجاعة كافية لأصرخ، كل يوم، ربع ساعة، لكنت أشد توازنا.

* * *

أتسكع عبر الأيام مثل مومس في عالم بلا أرصفة.

* * *

سأكتب على مدخل منزلي: 'كل زيارة هي اعتداء' أو: 'ارحموني، لا تدخلوا' أو: 'كل الوجوه تقلقني' أو: 'غائب دوما' أو: 'ملعون من يدق الباب' أو: 'لا أعرف أحدا' أو: 'مجنون خطير'.

* * *

أرسطو، طوما الإكويني، وهيغل ثلاثتهم مستعبد للعقل. المذهب أخطر أنواع الإستبداد، في الفلسفة وفي كل شيء.

* * *

الكتابة حيلة عندما لا نكون متعودين على الصيدليات، هي شفاء.

* * *

التاريخ؟ فرصة ممنوحة للبشر ليفقدوا مصداقيتهم بالتداول، الواحد تلو الآخر.

* * *

حينما لا أفكر في الموت أشعر أنني أخدع واحدا بداخلي.

* * *

أشعر أنني حر ولكنني أعرف أنني لست كذلك.

* * *

في قرية نورماندية، سألت فلاحا عن الموكب الجنائزي الذي كان يـــتابع من بعيد: "ما زال شابا، لم يتجاوز الستين. وُجد ميتا في الحقل. مـــاذا تريد؟ هكذا. هكذا. هكذا". ترديد بدا لي تافها في البداية لكن اســتبد بـــي في النهاية. لم يكن الرجل يدري أنه قال في الموت كل ما يمكن أن نقول وكل ما نعرف عنه.

* * *

كلما عشنا أكثر يبدو لنا أن ما عشناه كان بلا جدوى.

* * *

حين أفكر في حماقاتي السابقة لا أجد ما أقول. لا أفهم ما دهاني...

* * *

لا يمكن تدريس الفلسفة إلا في الساحات العامة أو الحدائق أو في بيوتنا. كرسي الجامعة هو قبر الفلسفة وموت كل فكر حي. الكرسي هو العقل في حداد.

* * *

ردا علـــى ســـؤال طرحه عليّ طالب حول علاقتي بنيتشه أجبت بـــأنني تخلـــيت عنه منذ زمان. ولماذا؟ يستفسرالطالب. لأنني وجدته ســـاذجا. أعـــيب عليه حماسه واندفاعاته. لقد هدم الأوثان ليعوضها بأوثان أخرى. هو هادم مزيف... لقد راقب البشر من بعيد، لو اقترب منهم لما جاء بفكرة السوبرمان على الإطلاق...

* * *

لم أهضم بعد عار الولادة

* * *

كأن الناس ليس لهم ما يفعلوه سوى أن يموتوا، يقول المرء، عندما يرى تلك الأعداد الهائلة من القبور.

* * *

في مجـــال الفلـــسفة، أعـــتقد أنه ليس من الضروري نحت كلمات جديـــدة، ومصطلحات تقنية. بالعكس تماما هذه التقنوية هي الخطر الكبير الذي يتربص بالفلسفة الجامعية والذي يبعدها عن حقيقة الأشياء.

* * *

لا يحب الموسيقى سوى الذين يتعذبون في الحياة.

* * *

أدرت ظهـــري للفلسفة حينما اكتشفت أنه من المستحيل العثور لدى كانط والفلاسفة أجمعين على أدنى ضعف إنساني ولا أدنى علامة حزن حقيقي.

* * *

لا تعدو المذاهب الكبرى أن تكون سوى تحصيل حاصل برّاق.

* * *

كم هي قريبة مني تلك العجوز المجنونة. تلك التي كانت تركض راغبة الإمساك بشيء قليل من الزمن.

* * *

في غمرة أعوام الدراسة الجدية، اكتشفت أنني سأموت في يوم من الأيام وهذا الأمرأقعدني أرضا. اقتنعت بأنه لم يبق لي شيئا أتعلمه أكثر من هذا، فتركت مقاعد الدراسة لأطلع العالم بهذا الإكتشاف الفريد.

* * *

عن طريق الموسيقى نشعر فعلا أننا نملك روحا.

* * *

يتهافت الجمهور على ما يسمى بالكتاب الإنسانيين، لأنه يعرف تماما ألا خـــوف معهم: لقد توقفوا مثله في منتصف الطريق، لذلك سيقترحون عليه تصالحا مع المستحيل، نظرة منسجمة مع الكاوس، الفوضى.

* * *

نـــبدو على هيئة مجرمين في اللحظة التي نعتقد فيها أننا فهمنا كل شيء.

* * *

الموسيقى وهم يُكفّر عن كل الأوهام الأخرى.

* * *

تـــشريح النوستالجيا يا له من عنوان! إنه أروع عنوان يمكن أن يعطى لكتاب. ولا يهم بعد ذلك إن كان الكتاب رديئا أم جيدا.

* * *

لا نكتب لأننا نملك شيئا نقوله وإنما لأننا نرغب في قول شيء.

* * *

الموت! يا له من خزي. التحول في رمشة عين إلى شيء.

* * *

وأسفاه على" العدم". أفسده تعسف فلاسفة غير جديرين به.

* * *

إنسان يحترم نفسه لا يمكن أن يكون له وطن. الوطن صمغ قوي.

* * *

نبقى دائما عبيدا طالما لم نشف من مرض الأمل.

* * *

مهمتي قتل الوقت ومهمته قتلي. قاتلان متواطئان.

* * *

أمضي وقتي في الدعوة للإنتحار عن طريق الكتابة والدعوة لتجنبه عن طريق القول. هو مخرج فلسفي في الحالة الأولى ولكن في الحالة الثانية يتعلق الأمر بكائن، بصوت، بشكوى.

* * *

أهم إنجاز حققته في حياتي هو استمرار بقائي في الحياة.

* * *

ليس من المهم أن أعرف من أكون ما دمت لا أكون في يوم من الأيام.

* * *

ننسى جسدنا ولكنه لا ينسانا أبدا. ملعونة ذاكرة الأعضاء!

* * *

ما الشيخوخة إلا الثمن الذي ندفعه مقابل ماعشنا.

* * *

الأمل هو الشكل الطبيعي للهذيان.

* * *

كان يجب أن أستسلم لغرائزي، ترك جنوني ينفتح ويينع. لكني فعلت العكس تماما: اختفيت وراء قناع العقل.

* * *

ينبغي الإنصات إلى المجنون الذي فينا.

* * *

كلمــــا رأيـــت فلاحا رومانيا أُسرّ بملاحظة الفراغات المؤلمة التي عرفها تاريخنا مرسومة على تجاعيد وجهه.

* * *

كل واحد منا هو في وضع آدم. يجب علينا أن نبدأ كل شيء من جديـــد.. الآدموية تعني بكل بساطة، أن تطرح كل مسائل الحياة سواء أكانت روحية أو تاريخية أو سياسية كأنها تطرح لأول مرة. أن تكون آدمويا، هذا يعني أنك مضطر لتدشين عالمك الخاص.

* * *

موسيقى موزار هي الموسيقى الرسمية للجنة.

* * *

أنا غاضب على كل شيء. حتى لو انتخبت ربا سأقدم استقالتي.

* * *

تبدأ كل حضارة بأسطورة وتنتهي بشك.

* * *

لا أنتظر شيئا بما في ذلك الموت. عدم اكتراثي ليس له حدود.

* * *

الملل إعصار بطيء.

* * *

لم تعبد البشرية إلا أولائك الذين دفعوها إلى الهلاك.

* * *

بمخالطتنا للفرنسيين نتعلم أن نكون أشقياء بلباقة.

* * *

ينبغي أن نقف مع المظلومين دائماحتى ولو كانوا على خطأ ولكن دون أن يغيب على أذهاننا أنهم من نفس طينة الظالمين.

* * *

لا اختيار لنا سوى بين حقائق قاتلة وخدع شافية.

* * *

كلما خرجت من ذاتي غلبني النعاس ونمت.

* * *

للتاريخ مجرى ولكن ليس له معنى.

* * *

أنت ضد كل ما جاء منذ 1920، قال لي يوما هنري توماس. لا منذ آدم! أجبت.

* * *

أبهرت بشيئين إثنين في شبابـــي: المكتبات والمَواخير.

* * *

فوجئت يوما وأنا أشرح لتلامذتي أن كل شيء مريض بما في ذلك مبدأ الهوية.

* * *

كيف استطعت أن أكون ذاك الذي كنته.

* * *

كل كتبـــي هي عبارة عن انتحارات فاشلة.

* * *

الحدائـــق أصبحت تعج بالأطفال والشيوخ. خليط من المستشفى والسيرك.

* * *

كنت، أناكائن، سأكون... تلك مسائل نحو وصرف، ليس قضايا وجود بالمرة.

* * *

لو لم يحافظ على وهم أخير لكنت أعلنت انتمائي إلى عمر الخيام، إلى أحزانه التي قلما نجد لها نظيرا... لكنه ظل مؤمنا بالخمر.

* * *

الشعور بالملل لَوكٌ للوقت

* * *

الشكوكية أناقة الحيرة.

* * *

الأحداث: أورام الزمن...

* * *

فكرة الإنتحار هي الفكرة الوحيدة التي تجعلنا نتحمل الحياة.

* * *

كون الحياة بدون معنى هو السبب الوحيد الذي يعجلنا نتحملها.

* * *

عدم الوعي وطن، الوعي منفى.

المعنى والغضب

مدخل إلى فلسفة سيوران

حميد زناز

• كاتب من الجزائر

يكمن إشكال الوضع البشري حسب مؤلف «مساويء أن يكون الإنسان قد ولد»، في استحالة العودة إلى الطمأنينة الأولى والغطس ثم الذوبان من جديد في نعيم ذلك اللاوجود العذب الذي كنا نتمتع فيه قبل أن نولد، قبل ان نَتَفردن. لقد رُمي الإنسان في جسد وتُرك يتيماً أمام مصير مجهول، فما كان يمكن أن يكون إلا غريباً في هذا العالم الموحش. ينبع ضجر الإنسان وتَذمّره حيال الوجود من هذا الإحساس المطلق بالتيه، ومن ذات الإحساس نشأت الآلهة والديانات والفلسفات. ما الواقع سوى قمامة لدى سيوران، نسخة باهتة لممكن ما، أغنى وأسعد. لذلك، نعثر على حنين يسري في كل ما كتب. حنين إلى مطلق مستحيل المنال، حنين إلى ما قبل النشأة: «حينما عرفت بأنني ولدت، انتهى كل شيء بالنسبة لي»، يتحسر بمرارة. وهذه «المعرفة» هي مصدر تمرده وشكواه الدائمين. الموت الحقيقي للإنسان هو ولادته. أليست الولادة سقوطا للروح في قبر الجسد؟

S.R.
11
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ريال

ISBN 978-9953-87-559-0
9 789953 875590

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com